

جمال الدين عتيار

نظم الحرب في الإسلام

حقوق إعادة الطبع محفوظة للمؤلف

دار السنة المحمدية

• شارع غيط النوى - القاهرة

ت ٧٩٠١٧

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم
من دياركم ، أن تبرؤم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين
« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم
من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم
فأولئك هم الظالمون » .

obeikandi.com

تقديم

في مثل هذه الأيام من عام مضى ، أصدرت الجزء الأول من بحثي هذا عن حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة . وقد تحدثت فيه عن نشأة الحكومة الإسلامية الأولى في شيء من التفصيل ، ثم عن دستورها الأغفر في شيء من الاجمال . فكان الجزء الأول مقدمة البحث وفاتحة القول .

واليوم أخرج للناس الجزء الثاني من « حكومة الرسول » بحثاً عن نظم الحرب في الإسلام ، والذي أحب أن أقوله وأنا أقدم لهذا الجزء ، إني رأيت النظم الحربية للإسلام ، جوهرة صافية مجردة من طعن المتعصبين وكيد الجاهلين ، بعد ما كتبت هذا البحث .

رأيتها خير ما عرف الإنسان عن سرعة القتال .

رأيتها جماع المثل العليا والمبادئ الإنسانية .

رأيتها طريقاً إلى الأمن والسلام ، ورد الظلم والعدوان ، وتحرير الأديان .

ثم نظرت إلى حروب الناس في عصر العلم والمدنية فوجدتها جماع القسوة والوحشية ، والفدر والخيانة ، والنكث بالعهود ، والاستهانة بالشرف الدولي والكرامة الإنسانية .

ثم وجدت سلم اليوم وسيلة إلى الحروب وطريقاً إلى العدوان ! فأمنت أن حروب الإسلام خير من سلم هذه الأيام .

فهى حروب تلد السلام .

وسلم اليوم يلد الحروب !

وأيقنت أن العالم فى مسيس الحاجة إلى نظم الإسلام الحربية كى يجنب
الناس كثيراً من الويلات ، ويعيد للشرف الدولى والمبادئ الإنسانية نور الحياة
بعد أن أسكنها ظلمات القبور .

وإن اليوم الذى يدرس فيه العالم نظم الإسلام فى شتى مرافق الحياة ،
ويتخذها له شرعة ومنهاجاً ، هو اليوم الذى أسعد فيه واعتز به ، وأعلم أننى لم
كن أناذى فى الصحراء ، وإنما كنت أناذى من يسمع القول فيتبع أحسنه .

صالح الدين عباد

كيف شرع القتال

كان القتال محرماً على الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، لأن المسلمين كانوا فئة مستضعفة لاتطيق حرباً ولا قتالاً ، فلم يؤذن لرسول الله بالقتال ، وإنما أمر بأن يجاهد الناس بالحجة والبرهان والنصح والاقناع ، إذ هكذا أمره الله فقال « فلا تطع الكافرين وجاهدكم به » أى بالقرآن .

فلما اشتد عداؤ قريش أمر الله رسوله بالهجرة ، فهاجر بعد أن بايع نفراً من أهل يثرب على أن يمنعوهم مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم . ولم يلبث أن دخل أهل المدينة في دين الله أفواجا ، فلم يبق منزل إلا وفيه ذكر لرسول الله . وهذا زاد من بأس المسلمين ، فأصبحوا أهلاً للحرب والنزال . فشرع الله سبحانه وتعالى القتال . وقد جاءت شرعية القتال في خطوات عدة : -

(أولاً) أحل الله لرسوله القتال بعد أن كان محرماً عليه ، فله ولأصحابه أن يجاهدوا أعداءهم بقوة السلاح إن شاؤا ، فالله كفيل بنصرهم وتأييدهم . وفي ذلك يقول تعالى : - « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وقد كان الإذن بالقتال أول العهد بالمدينة . فلقد روى عن ابن عباس أنه قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ! إنا لله وإنا إليه راجعون ... ليهلكن « فأنزل الله عز وجل « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » . وليس بمعجيب أن يأذن الله لرسوله بالقتال أول العهد بالمدينة ؛ فقد عاهده أهلها قبل الهجرة على أن يحاربوا من أجله الأحمر والأسود من الناس .

وليس صحيحاً ما يقال من أن الإذن بالقتال كان آخر العهد بمكة ، فإن سياق الآية - كما يقول ابن القيم - يدل على أن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم .
(ثانياً) فرض الله على المسلمين قتال الذين يقاتلونهم ، فقال : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وقاتلوا حيث تقتضونهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوا عند المسجد الحرام حتى يقاتلوك فيه . فإن قاتلوك فاقتلوا . كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »

(ثالثاً) ولما خرج اليهود على وثيقة الرسول صلى الله عليه وسلم أمره الله بقتالهم فقال « وإما تخافن من قوم خيانة ، فانذروهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين » وقال « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

(رابعاً) أمر الله المسلمين بقتال المشركين كافة ، وذلك بعد أن تملاً أهل الجزيرة مع قريش ، وتعاهدوا على حرب الرسول . فقال سبحانه « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

حكومة الرسول حكومة سلام

ولا يظن القارىء الكريم أن حكومة الرسول كانت تفر الحرب والقتال بعد إذ نزلت تلك الآيات . فما هكذا أراد الله عندما شرع القتال ، ونظرة واحدة إلى أوامر الله تكفى لتثبت أنه لم يقصد بالقتال إلا رد العدوان .

ففي الآية الأولى لم يأذن لهم بالقتال إلا لأنهم ظلموا .

وفي الآية الثانية أمرهم بقتال من يقاتلهم دون من لا يقاتلهم .

وفي الآية الثالثة أمرهم بقتال اليهود لأنهم نقضوا ما عاهدوا الرسول عليه ، وحنونه والله لا يحب الخائنين .

وفي الآية الأخيرة أمرهم بقتال المشركين جميعاً لأنهم اجتمعوا على حرب المسلمين ، وخرجوا عن حيادهم إلى صفوف قريش بشاركونها عداها لدين الله .

فشعار المسلمين في قتالهم قول الله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وقوله « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقوله « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

ونعمة حقائق ينبغي أن نبينها للقارىء الكريم قبل أن نمضي في حديثنا عن هذا الموضوع :-

« الحقيقة الأولى » أن أية قوة في الأرض إذا استطاعت أن تكره الناس على كل شيء ، فلن تستطيع أن تكرهم على الدين ، أو أن تلزمهم إياه وهم له كارهون ، فهي مهما سيطرت عليهم لن تملك منهم إلا السنة تردد ما تكره

عليه من قول ، أو أجساداً تؤدي ما تجبر عليه من عبادة وتقديس . فأما القلوب والأرواح فلن تجد إليها سبيلاً . ولن تملك منها كثيراً أو قليلاً ، ولن تستطيع معها إكراهاً وتحويلاً .

الحقيقة الثانية أن الله سبحانه قد نهى رسوله الكريم عن أن يلح في دعوة من يعرض ويتولى . ومن أجل ذلك نزل القرآن يعاتب الرسول لما تصدى لنفر من أشرف قریش يلح في دعوتهم إلى دينه ، فقال سبحانه « فأما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك ألا يزكى ؟ ! » وإذا كان الأمر كذلك فكيف لرسول الله أن يكره الناس على دين الله وقد عوتب لما تصدى لمن أعرض واستغنى ؟ ! .

ثم إن الله سبحانه قد قرر في هذه الآيات من سورة عبس أن رسوله الكريم إن يحاسب على إعراض الناس ، ولن يسأل عن كفرهم والحادهم . . . « وما عليك ألا يزكى ؟ ! » .

الحقيقة الثالثة أن الاسلام دين التفكير والتعقل ، والنظر والتدبر فهو يخاطب العقل ، فيدعو بالحكمة ، ويقنع بالحجة ، ويقهر بالبرهان ، ويجادل بالتي هي أحسن .

انظر إليه كيف يثبت أن القرآن من عند الله فينادى في الناس « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » فيحاول الناس أن يأتوا بمثل القرآن فيعجزوا عجزاً مبيناً، فينادى فيهم ثانيه « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » فيحاول الناس وقد خفف الله عنهم فلا يستطيعون ، فينادى فيهم ثالثة « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله

وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » فيحاول الناس من جديد وقد حسبوا الأمر يسيراً هيناً ، فإذا به ممتنعاً معجزاً . وما قصد الرحمن من هذه الآيات إلا أن يخاطب العقول فيدفعها إلى الإسلام دفعاً شديداً لا كرها وإجباراً وإنما اقتناعاً وإيماناً ، فليس لعاقل يسمع هذا التحدى الصارخ ويرى من نفسه ذلك العجز الدليل ، إلا ويسرع إلى الإيمان اسراعاً . وقد دفعته الحجة وقهره البرهان ، ولم يكرهه رمح أو يجبره بشار !

واستمع للقرآن الكريم إذ يدعو إلى التفكير في خلق السموات والأرض ، ليؤمن الناس بالله الذي خلقهم بعد تفكير وتدبر ونظر واقتناع . استمع للقرآن في هذه الآيات « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ثم استمع للقرآن في هذه الآيات : « أفرايتم ما يمتنون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ . . أفرايتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ . . أفرايتم الماء الذي تشربون . . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ . . أفرايتم النار التي تورون . . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ » .

فما للناس لا يؤمنون ؟ « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » . ثم ما لهم كيف يكفرون ؟ « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله

لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ! » . أفلا يؤمنون بالله « الذى خلق سبع سموات
طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » ؟ .

هذه الآيات تدعوك يا أخى أول ما تدعو إلى النظر والتدبر ، والتفكير
والتعقل . فاستجب لما تدعوك إليه ثم انظر ماذا تسمع وترى ؟ .

هل ترى إلا نفسا قد آمنت ، وقلباً قد اطمئن ؟ وهل تسمع إلا لسانا يردد
قول الله تعالى « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ! » أو قول الاعرابى الحكيم
« ليل داج ، ونهار ساج ، وسما ذات أبراج ، ونجوم تزهـر ، وبحار تزخر ، وجبال
مرساة ، وأرض مدحاة ، وانهار مجراه : إن فى السماء خبـراً . وإن فى الأرض
لعبرا » ثم لتسائل نفسك بعد ذلك : « أفلا يدل هذا على اللطيف الخبير ؟ .

مثل هذا الإيمان هو الذى دعا إليه الإسلام بما قدمنا من آيات ، ذلك بأن
إيمان العقل لا يذهب ولا يضعف مادامت للإنسان عين تنظر وعقل يفكر . بل يزداد
على الأيام قوة كلما ازداد النظر والتفكير . فأما إيمان التقليد فانه أضعف من أن
يصمد لكيد الشيطان ، ولو كان كيمده أوهى من خيط العنكبوت ! وأما إيمان
الاكراه فانه النفاق بعينه . إنه الايمان الزائف الذى لا يعرف إلى القلوب سبيلا .
وحاشا لله أن يكون إيمان الناس يدينه إيماناً ضعيفاً أو زائفاً .

لقد حارب الاسلام العقول الراكدة التى لا تفكر ولا تعقل . وعاب أصحابها
إذ عطّلوا هذه النعمة الكبرى وهبطوا بأنفسهم إلى مستوى الحيوان الذى لا يجد
عقلاً يفكر به ويتدبر . ومن يدرى فله لو وجد عقلاً لفكر به وقدر ! حارب
الاسلام هذا الصنف من الناس الذين إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله « قالوا : بل
نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ! أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ! ومثل

الذين كفروا كمثل الذى ينفق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، سم بكم عى فهم لا يعقلون » .

ولقد ضرب القرآن للناس مثلاً قصة إبراهيم ، إذ كان يهدى قومه بالحجة والمنطق ، ويدعوهم إلى النظر والتفكير ، ليـكونوا من المؤمنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي . وكان قومه نجابين فاطمأنوا إليه ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، ليبين لهم أنه شيئاً يتغير ويتحول لا يليق أن يتخذ إلهاً ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكون من القوم الضالين . وإنما أراد بذلك أن يصرف قومه عن هذا الضلال المبين ، ولكنهم لم يأبهوا له واطمأنوا لآلهتهم التى عابها ، وأظهر لهم نقصها وقصورها . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر . فلما أفلت قويت عليهم الحجة وأخذهم البرهان . ولكنهم لم يستجيبوا لداعى الحق ، وظلوا على آلهتهم عاكفين فقال لهم إبراهيم « يا قوم إني برىء مما تشركون » فما آمن إبراهيم بنجم أو شمس أو قمر ، وإنما أراد أن يبين لقومه كيف يكون الإيمان نتيجة الفكرة وثمرة العقل ووليد النظر والتدبر . وتلك سنة الله فيما نزل من رسالات . ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

* * *

تلكم هى الحقائق الثلاث التى ينبغى أن نقف عندها متأملين ، عند ما نتحدث عن موقف الحكومة الرشيدة من الإكراه فى الدين ، لنرى كيف أن الاسلام برىء مما يزعم المفكرون . فلقد حرصت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن تسود السلم والأمن والطمأنينة بين الناس ، فلم تكن تلجأ إلى الحرب إلا إذا

اضطرت إليها اضطراباً . ولكم جنحت للسلم تحمل بها مشاكلها مع العدو قبل أن يضطرها إلى حربها .

ألم تر كيف سالم رسول الله اليهود ووادعهم ، فأمنهم على دينهم وأموالهم وأرواحهم ؟ ثم ألم تر كيف كانوا يؤلبون على رسول الله ، ويجادلونه بغير الحق ، وهو يرد كيدهم باللين والحكمة وحسن السياسة حتى إذا بلغ السيل الزبى ، ولم يجد معهم لين ولا حكمة ، حاربهم ونفاهم من الأرض .

لقد حاولوا التفرقة بين المسلمين بعد أن جعلهم الله إخواناً متحابين ، فأرسلوا غلاماً منهم إلى الأوس والخزرج يذكّرهم بيوم بعاث ، يوم انتصرت الأوس على الخزرج ، ولم يقم عنهم الغلام حتى أفسد بينهم فتواعدوا القتال وتنادوا « السلاح السلاح ! »

فانظر كيف كان موقف نبي الرحمة ورسول السلام . . . لم يزد عليه السلام على أن قال لأنصاره :— « الله الله ! أبدعوي الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم » وما سمع الأنصار هذا القول الحكيم حتى انتزعوا من قلوبهم العداوة والبغضاء وعادوا أشد ألفة وإيثارة . . وهكذا رد عليه السلام كيد اليهود في نخورهم دون أن يصيبهم بسهم أو يضربهم بسيف ! ولو قد أراد لفعل ، ولن يجد لأثمّاً أو عاتباً ، لأن القوم أرادوا له الشر ، واثمروا بأنصاره ليقمّتلوا فتذهب ريحهم وتضعف شوكتهم . فلا أقل من مجزيهم شراً بشر « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ولكنه أثر الحلم وجنح السلم فألف بين أنصاره بحسن سياسته وجميل حكمته . ولا عجب « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

وقد كان جديراً باليهود أن يكفوا عن سياسة العدا لما يجدون من تسامح

الرسول وعفوه وسمو سياسته ، ولكنهم أبوا إلا تعنتاً وفساداً ففضوا بمجادلونه بالباطل ليفسدوا عقيدة المسلمين ويزعزعوا إيمانهم ، ولكن هيهات هيهات ...

واقدر ظلوا على هذه السياسة عامين اثنين ، والرسول لا يحاربهم إلا بالحجة ، والمسلمون لا يناضلونهم إلا بقوة الإيمان . حتى إذا انتهى العارمان بغزوة بدر الكبرى بلغت وقاحتهم غايتها ومنتهاها إذ كشفت طائفة منهم عن عورة امرأة مسلمة ، فثار المسلمون لهذه القحقة ، وغضب الرسول عليه السلام ، ولكنه آثر السلم في هذه المرة أيضاً ، فأرسل يحذرهم عاقبة ظلمهم ، عليهم يثوبوا لرشدكم ويرجعوا عن غيهم . ولم يحاربهم حتى كشفوا عن سواد قلوبهم وسوء نواياهم ، فتوعدهم بالحرب وأقسموا لو حاربوه ليعلمن أنهم الناس ! .

فانظر كيف كان عليه السلام يؤثر السلم حتى يدعو أعداؤه إلى الحرب ! وهو يوم أرسل يحذر تلك الطائفة من اليهود لم يكن عاجزاً عن حربها ، وإنما كان في قوة حربية ومعنوية تمكنه من سحقها لو أراد . فلقد عاد يومذاك إلى المدينة بعد أن هزم قريشاً في بدر . وهو بعد هذا الظفر لم يشأ أن يعاقب اليهود على بغيتهم قبل أن يحذرهم وينذرهم ، عسى أن يكون في التحذير والانذار رجوع إلى الحق ودرء للقتال . فهل بعد هذا حسن سياسة وابن جانب ؟ وهل بعد هذا جنوح للسلم ونفور من الحرب ؟

وإن نظرة واحدة إلى سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم مع بني النضير كافية لتؤكد ما قدمناه من حرص الحكومة الإسلامية الأولى على السلم ، ورغبتها عن الحرب . فلقد اقتصرت هذه الطائفة الآثمة من اليهود بالرسول الكريم لتقتله . والتآمر على قتل الرسول معناه التآمر بالدعوة الإسلامية . وهذه هي الخيانة العظمى والجريمة الكبرى التي لا تغتفر . فلا أقل من أن يحاربهم الرسول فيقتلهم كما حاولوا قتله . ولقد حاربهم الرسول فعلاً . وليس يهمننا هذا الآن ، وإنما الذي يهمننا

أنه ما حاربهم إلا مضطراً ! فلقد كان يعمل جاهداً للسلم حتى اللحظة الأخيرة ، ولقد أراد أن يعاقبهم على بغيهم هذا بغير السيف والرمح ، فأرسل يأمرهم بالجلاء عن المدينة ، ولكنهم أبوا إلا تكبراً وعناداً ، فرفضوا الجلاء وأرسلوا يسألونه أن يصنع ما بدا له !

وبرك أيها القارئ الكريم ما ذا يصنع الرسول إزاء هؤلاء القوم ؟ ! أيتركم ليفسدوا في الأرض بغير الحق ؟ أيتركم ليطفئوا نور الله والله متم نوره ولو كره الكافرون ؟ أيتركم ليحاولوا قتله من جديد والله قد أراد دعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً ؟ !

لقد حاربهم الرسول بعد أن دعاهم إلى السلم فأبوه ، ولو قد كانت لهم عقول يفقهون بها جالوا عن المدينة بعد أن كشف الله عن خبثهم ولؤمهم ، ولو قد فعلوا لما حاربهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما نكل بهم .

وثئن كان بنو قينقاع وبنو النضير قد اضطروا الرسول إلى حربهم ، بنقضهم عهده ، ورغبتهم عن موادعته . لقد كان موقف بنى قريظة مثل موقفهم ، فيه تحد صارخ ونقص ظاهر . فلقد انضموا إلى الأحزاب يوم الخندق ، فأعلنوا على رسول الله الحرب ونقضوا العهد . ولولا خدعة نعيم بن مسعود ، لما كفوا عن حرب الرسول . فكيف لا يحاربهم وقد حاربوه ، وكيف لا يعاقبهم وقد خانوه ؟

لقد كانت هذه هي السياسة الحربية التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود . وهي كما ترى سياسة لا تعرف الحرب إلا حين تضطر إليه اضطراراً . ولن نزداد بدراسة الحروب النبوية إلا إيماناً بهذه القاعدة . فوقف قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي دفعه إلى حربها . فهي قد كانت حجر عثرة في سبيل الدعوة الإسلامية ، تحول بين صوت الحق وبين آذان تريد أن

تسمع ، وقلوب تريد أن تؤمن ، ونفوس تريد أن تهتدى . . . وهى قد أخرجت المسلمين من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ! فإذا حاربهم الرسول صلى الله عليه وسلم فإنما يحارب قوماً بدوهم بالحرب والعداء ، فأذوه واضطهدوه ، وأخرجوه من وطنه ظلماً وعدواناً ولو قد تركوه ينشر دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، لما كان هناك حرب ولا قتال . واسكنهم وقفوا في وجه الدعوة ، فوقف في وجههم يفاضل من أجلها حتى دخل مكة فاتحاً منتصراً .

ولقد عبر عليه السلام عن هذا المعنى الذى قدمناه يوم خرج إلى مكة معتمراً وسمع أن قريشاً قد لبست جلود النمرور ونزلت بذي طوى تعاهد الله لا يدخل رسول الله مكة عليها أبداً . فاقدم تألم عليه السلام لهذا الصدد عن سبيل الله فقال « يا ويح قريش ! لقد أهلكتمهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهروا الله عليهم دخلوا فى الاسلام واقرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ! فوالله لأزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أوتنفرد هذه النسالة » . فهو عليه السلام كان يود لو أن قريشاً خلت بينه وبين نشر دعوته ، فلا يفرق فى سبيلها بين سيفه وغمده ، واسكنها أبت إلا صداً عن سبيل الله وكفراً به ، فلم يكن بد من القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وإذا كان هذا خبر قريش ، فما خبر الفرس والروم ؟ لقد بدأت حكومة الرسول بحرب الروم عند حدود الشام فى مؤته وذات السلاسل وتبوك . ولقد سار الراشدون من أخلاف النبى على هذه السياسة حتى هزموا الروم والفرس جميعاً . فهل معنى ذلك أن الإسلام يقر سياسة الحرب من أجل نشر الدعوة ، أو أنه انتشر بالسيف كما يزعم أعداؤه ؟

الحق إن الإسلام لم يجبر أحداً على اتباع رسالته ، ولم يتخذ القوة وسيلة إلى

نشر مبادئه . فلقد نص دستور الحكيم على حرية العقيدة وحرم الإكراه في الدين . ولكن حرية العقيدة ينبغي أن تقرر للإسلام كما قررها هو لغيره من الأديان فإذا كان الإسلام قد كفل للناس الحرية في اختيار العقيدة التي يشاؤون ، فليس ينبغي لأصحاب السلطة والنفوذ من أتباع العقائد الأخرى أن يحولوا دون الدعوة إليه ، أو أن يفتنوا من يريد اعتناقه من أتباعهم ورعاياهم . فإذا حالوا دون دعائه أو فتنوا أتباعه ، لم يكن بد من حربهم حماية لحرية العقيدة التي قررها ودعا إليها تلك الحرية التي اعترفت بها الأمم الحديثة في عصر العلم والمدنية ، وجعلت حمايتها آية التقدم ودليل النضج الانساني .

لحروب الإسلام ضد قریش والفرس والروم ، لم تكن حروباً تنشر القييدة العقيدة بالسيف ، وإنما هي تأديب لمن يكفرون بحرية العقيدة ويفتنون الناس عما يؤمن به قلوبهم وأطمئن له عقولهم . وإن موقف الروم من رسول الله ، وموقف رسول الله من الروم خير ما نذكره في هذا المقام .

فلقد بدأ عليه السلام يدعو كبيرهم هرقل إلى دين الله ، فأبى أن يؤمن هو وكبراء قومه وإن كان قد أحسن الرد لأسباب سياسية في أكبر الظن .

واقعد أرسل عليه السلام بعض دعائه إلى ذات الطلحة على حدود الشام ، ليدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقتلهم أعداء الله من أتباع الروم إلا كبيرهم . كما أرسل صلى الله عليه وسلم إلى عامل هرقل على بصرى من يدعوه إلى الإسلام ، فكان جزاء داعية الرسول أن قتله أحد أتباع هرقل من بني غسان ! ولقد روى أن أحد قادة الجيش الرومي أسلم بعد سرية مؤته ، فساكن من هرقل إلا أن قبض عليه ، ثم أمر به فسجن على يعود إلى دين آبائه ، فلما وجد منه إصراراً على دين الله قتله ! .

فالإسلام بدأ ينشر مبادئه بالحجة لا بالسيف ، ودعواته قد ذهبوا إلى حدود الشام مسلمين ، لا يبيعون حرباً وإنما نصحاً وإرشاداً ، فإذا بأعداء الله يقتلونهم ولا يبالون . والإسلام بعد ذلك إذا حاربهم يقال إنه انتشر بالسيف ، وإنما كان يكافح من أجل حرية العقيدة ، تلك الحرية التي حاول أعداؤه أن يحرموه منها بقتلهم دعواته وفتنتهم أتباعه .

ولو قد كان الإسلام يقر نشر الدعوة بالسيف وإكراه الناس على الدين ، لما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من صاحب إبله ومن أهل الجرباء وأزرح الجزية بعد أن انسحبت أمامه جحافل الروم يوم خرج لقتالهم في تبوك . فإن طبيعة النصر تدفع المرء إلى الظفر بأكبر قسط منه . ولكن رسول الله أبى أن يحارب أهل الجرباء وأزرح وإبله لما وجد من جنوحهم للسلم . وكيف يحاربهم والله يقول « فإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » لقد سارع عليه السلام فكتب لهم كتب أمان أقرهم فيها على دينهم وأمنهم على أرواحهم وأموالهم ما داموا يعطون الجزية كما يخرج المسلمون الزكاة : والجزية ليست ثمناً يدفعونه لقاء إصرارهم على دينهم ، وإنما هي عوض عما يبذله المسلمون من جهد ومشقة في سبيل حمايتهم . حتى لقد روى أبو يوسف في كتاب الخراج « أن أبا عبيدة بعد ما صالح أهل الشام وجبى منهم الجزية والخراج ، بلغه أن الروم قد جمعوا له واشتد الأمر عليه وعلى المسلمين فكتب رضى الله عنه إلى أمراء المدن التي تم صلحها أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج وأن يقولوا لهم : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجوع . وانكم قد اشتراطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وإن نصرنا الله عليهم » .

مغاية الحرب في الإسلام

ويسير على كل باحث فيما جاء به الكتاب الكريم من آيات القتال أن يعلم غاية الحرب في الإسلام ، فإنما شرع الله القتال وأذن به لنبيه والمؤمنين كي يضع للبشرية مبدأ الحرية في العقيدة ، ذلك المبدأ العادل الحكيم الذي يكرم الناس ويسمو بهم كل السمو ، فلا يعطل نعمة العقل التي من الله بها عليهم ولا يكرههم على دين أو يجبرهم على مذهب ، وإنما يشعرهم بأن لهم عقولاً تفكر فتعرف الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الطيب ، وأن لهم بعد ذلك الحرية الكاملة التي تمكنهم مما يروونه حقاً ، وتؤمنهم مما يروونه باطلاً .

فالله سبحانه لم يأذن للمسلمين بقتال المشركين إلا لأنهم « أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » فهم قوم قد أودوا في أنفسهم وأموالهم ، وأريد بهم التحول عما تمليه عليهم عقولهم كرها وإجباراً ، ثم أخرجوا من ديارهم ظمأ وعدواناً . وكل الذي فعلوه إنهم قالوا ربنا الله !!

فهؤلاء المشركون من قريش أرادوا أن يسنوا للناس وأصحاب القوة والسلطان مبدأ الاكراه في الدين ، بما فعلوا بالرسول وأصحابه من الايذاء والاضطهاد والفتنة والاخراج . وليس بخاف على القارئ الكريم ما حدث لبلال الحبشي ، ذلك المؤمن الصادق الذي قذف به مولاه إلى الصحراء الملهبة وقد أثقله بصخرة لا يطيقها ، ثم تركه فريسة للحر والجوع والعطش حتى يموت أو يردد عن دينه . ونحن ترك الله قريشاً تفعل ما تريد من هذا الاكراه لطغي الباطل على الحق ، والطمس للظلام للنور . فلم يكن بد من أن يأذن للرسول

وأصحابه بالقتال حتى يجعل الناس أحراراً فيما يختارون من الدين ، وحتى يذكر اسم الله في الأرض » ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لهدت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً .

فغاية الحرب في الإسلام أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فلا يدفع الناس إلى الإيمان بالله سوط سلطان ، أو يصددهم عنه فتنة باغ . ولا يكون في الأرض غير سلطان الله ، يهدي من يشاء إلى نوره ، ويصرف من يشاء عن طريق الرشاد . أما أن يكون الدين لغير الله من أهل الأرض يصرفونه كيف شاء لهم الهوى ، فيكرهون الناس في الدين ويصدونهم عما تطمئن إليه قلوبهم ، فذلك ما شرع الله القتال لأجله . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وليس من منطق الأمور أن يحارب الإسلام ليحرر العقائد ثم يقال إن الإسلام يريد أن ينشر دعوته بالسيف ! ولو قد كانت غاية الحرب في الإسلام نشر العقيدة وإكراه الناس على دين الله ، لما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن قتال الرهبان والشيوخ والنساء والولدان^(١) ما داموا مسلمين ، لا يحاربون أو يعينون على الحرب بجهد أو عدة أو رأى . وإلا فلماذا يعنى هؤلاء مما يكره عليه الناس ، لو صح أن الإسلام يكره الناس كما يدعى المبطلون ؟!

علاقة المسلمين بالدول المجاورة

وينبغي لنا - وقد فصلنا القول في سياسة الاسلام الحربية - ان نشير إلى ما كتبه الماوردي في أحكامه السلطانية ، ثم ننظر رأينا فيه . فلقد قال « إن المشركين في دار الحرب صنفان : صنف منهم بلغتهم دعوة الاسلام فامتنعوا منها ونألبوا عليها ، وأمير الجيش مخير في قتالهم بين أمرين يفعل منهما ما علم إنه الأصلح للمسلمين وأنكأ للمشركين من بياتهم ليلاً ونهاراً بالقتال والتحريق ، وأن يذرهم بالحرب ويصافهم بالقتال .

والصنف الثاني لم تبلغهم دعوة الإسلام ، وقل أن يكونوا اليوم لما قد أظهر الله من دعوة رسوله ، إلا أن يكون قوم من وراء من يقاتلنا من الترك والروم في مبادئ الشرق وأقصى المغرب لا نعرفهم فيحرم علينا الاقدام على قتالهم غرة وبياتاً بالقتل والتحريق ، وأن نبذأهم بالقتال قبل إظهار دعوة الإسلام لهم واعلامهم من معجزات النبوة وإظهار الحجة بما يقودهم إلى الاجابة فإن قاموا على الكفر بعد ظهورها لهم حاربهم وصاروا فيه كمن بلغتهم الدعوة^(١) » .

فالماوردي إذن يلخص علاقة الاسلام مع الدول المجاورة في أن قتالهم واجب متى دعوا إلى الاسلام وأعرضوا عنه . ولست أشك في خطأ هذا الفهم لحقيقة الاسلام وروحه الحربية . إذ أن معناه الاكراه في الدين والاجبار على العقيدة بقوة السلاح . والإكراه والاجبار أمران لا يقرهما الاسلام في دستوره الحكيم . ونقد رأينا فيما قدمنا من القول أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكره

أحداً على دينه ، وإن الله سبحانه لن يحاسبه على إغراض الناس ، بل إنه عاتبه لما تصدى لمن أعرض واستغنى ، فكيف إذا حارب من أعرض وألزمه الاسلام وهو له كاره !

إن الاسلام لا يبيح قتال الدول المجاورة لإغراضها عن دعاة الاسلام مادامت مسألة لا تقف في وجه الدعوة . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . والله تعالى يقول « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرمهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » فأما إذا صدت دعاة الاسلام ، وحالت بينهم وبين الدعوة إلى الله ، أو قتلت من آمن بالله ورسوله ، فأخرجتهم من ديارهم ، أو حبست عنهم أموالهم ، أو قاتلتهم واضطهدتهم ، فإذا ذلك يبيح الاسلام القتال بل يجعله فرضاً واجباً ، حفاظاً على كرامة الانسان ، وتحريراً للعقائد والأديان « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فإذا صدت دولة عن سبيل الله ، وحاربها المسلمون حتى مكثوا لدعاتهم سبيل الدعوة ، لم يكن لهم أن يكرهوا أهلها على دين الله بل لهم أن يأخذوا الجزية ممن أعرض كما يأخذون الزكاة ممن آمن ، وأن يكتبوا معهم كتب صلح وأمان كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل ايلة ، إذ كتب لهم هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ، ايوحنة بن رؤبه وأهل ايلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لحمد أخذه من الناس ، وأنه لا يخل أن يمنعوا ماء يريدهونه ولا طريقاً يريدهونه من بر أو بحر » .

وقد تضطرب في نفس القارئ الكريم آية كريمة وحيث شريف إذا قرأها قراءة عابرة ونظر إلى ظاهرها بدا له شيء من التناقض بينهما وبين آيات القتال في القرآن ، فإذا درسهما دراسة أعمق ، وفهم الظروف التي أحاطت بهما علم أن ليس في الأمر تناقض ولا اختلاف . فآما الآية الكريمة فهي قول الله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

فهذه الآية الكريمة نزلت في شأن اليهود الذين نقضوا عهد رسول الله وألبوا عليه الأحزاب . فليست عامة لكل المصور إلا بهذا المعنى ، أي لسنا مكلفين بقتال أهل الكتاب في عصرنا ، إلا إذا فعلوا مثل ما فعل يهود المدينة أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكيد للإسلام والتآمر به .

وأما الحديث الشريف فهو قول الرسول الكريم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قاله أعصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » فإن المقصود من الناس في هذا المقام مشركوا العرب ^(١) الذين بدءوا الرسول بالعدوان وأخرجوه من داره وماله بغير الحق ومن يفعل فعلهم في مختلف العصور ، كما أن المقصود بأهل الكتاب في الآية الكريمة يهود العرب أيام النبي خاصة ، ومن يكيد للإسلام مثل كيدهم على مصر المصور .

وليس أدل على صدق هذا الرأي من هذا الحديث الذي دار بين أبي بكر وعمر لما هم الأول بقتال المرتدين :-

(١) الشيخ محمود شلتوت ، القرآن والقتال ، ص ٣٣ .

— كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » .

— والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال .
فالناس الذين هم أبو بكر مجربهم ، هم الناس الذين حاربهم رسول الله حتى أسلموا ، هم مشركوا العرب الذين أمره الله بقتالهم حتى قالوا لا إله إلا الله فجاءه عمر وحاجه فيهم بهذا الحديث .

الحروب الاسلحة .. والمبادئ الإنسانية

إن الباحث عن المبادئ الإنسانية في الحروب الحديثة يكاد يفقدها وسط زحام الوحشية القاسية والبغى المهلك والعدوان الأنيم . حتى ليكاد يشعر أن عهد الجاهلية الأولى قد عاد من جديد يعرض على الناس مبادئه فرضاً ، تلك المبادئ التي تجعل القسوة والظلم والعدوان عنوان الشجاعة والبطولة وآية الشرف والسيادة وليست الحروب الإيطالية الحبشية ببعيده حتى ننسى أحداثها التي أصابت الإنسانية في الصميم فهوت بها إلى الدرك الأسفل ورجعت بها إلى العصور الحجرية الأولى مسرعة كل الإسراع . فلقد عمد هؤلاء الطليان إلى الغازات السامة فملأوا بها الجو ليموت الأحباش خنقاً وإحراقاً وقذفوهم بالقنابل التي لم يكن لهم بها عهد من قبل ، فما استطاعوا لها صداً ولا لأنفسهم وقاية ، ودمروا المستشفيات بهمة يحسدون عليها !

وهم هنالك في ليبيا قد فعلوا بالبطل الشهيد عمر الحقار ما لا تفعله الوحوش الضارية . وكل جرمه أنه ناضل من أجل الحرية والكرامة الإنسانية ثنتين وعشرين سنة لا يمل ولا يكل ولا يهن ولا يلين ، فظل يطارد الطليان ألف معركة أو تزيد . وحارب قائدهم الداهية « جرازياي » في ثلاث وستين ومائتي معركة ، ولم يك يملك ما يملك من طائرات ومصفحات ، بل كان يحاربهم بالسيف والرمح من فوق الجياد ، وهو مع ذلك بطل لا تلين له قناة ! حتى إذا جمع الطليان جموعهم ، وحاصروا البطل الصنديد ، تصدى لهم مكافئاً مناضلاً ، فكرمهم الله بالشهادة ميتة الأبطال ، إذ أسره الأندال وحكموا عليه بالاعدام ،

ونفذوا الحكم الظالم في وحشية يصفق لها الشيطان .

وأحلافهم من الألمان في الحرب العالمية الأخيرة قد دمروا مدينة بنجراد فأحاطوها إلى أكوام من الانقاض يتصاعد منها حريق النار ، وتقطير بينها أشلاء النساء والولدان بعد أن أطاحت بها القنابل والمتفجرات . والمدينة المنكوبة كانت مسألة مكشوفة كما أعلنت حكومتها ، ولكنها الرحمة والشفقة في الصورة الحديثة والطابع الجديد ! وإذا بحثت عن سبب هذا العدوان اشتد عجبك من قسوته وظلمه فكل الذي كان أن الشعب اليوغسلافي لم يرض عن حكومته التي عقدت ميثاق انضمام إلى دول المحور ، فأبدلها بأخرى . وللشعب الحق في أن يسير أوضاع بلاده الداخلية كما يريد ، وليس لغيره أن يتدخل في شئونه أو يحد من سلطته التي تقرها الشرائع وترعاها القوانين ، ولكن الألمان أبوا إلا أن يتخذوا من هذا الانقلاب الداخلي وسيلة إلى أطعامهم الخارجية « أن الذي يصعب فهمه - كما يقول الدكتور عوض بك - أن الاستيلاء من حادث داخلي في دولة من الدول يؤدي حتما إلى تخريب عاصمتها وإزهاق الآلاف من الأرواح البريئة »

وإن تعجب فعجب خبر هذه الذريات ، التي ما كاد يخترعها العلماء ، ويعلمون فتسكنها الذريع بيني الإنسان ، حتى سارعت أمريكا الباغية تحلى بها اليابان فتحدث ببعض مدنها ^(١) تخريبا ودمارا ، وإزهاقا للأرواح لم تعرف له الإنسانية مثيلا من قبل . وإني لأعلم أن هناك جماعة من الناس يجتمعون في أمريكا أيام هذه الذكرى الأليمة من كل عام بيمكون صنع الإنسان بأخيه الإنسان ! وهذه الأمثلة التي قدمت أقل من أن تصور فكرة الاجرام والوحشية التي امتلأت بها الحروب في القرن العشرين ، قرن الرقي والمدنية . والروابط الانسانية ! ولكني

(١) هيروشيما ونجازاكي .

أخشى أن تمل نفس القارىء ويقشعر بدنه من الحقائق المرة المؤلمة .
فما ذنب الأمنين في دورهم وأوطانهم ، حتى تدمر بهم الدور وتذك من حولهم
الأوطان ؟ .

وما ذنب الوليد حتى ييتم وهو بعد لا يقوى على الكلام ؟ ! .
وما جرم الأم حتى ترمل وما رحلت إلى ميدان ؟ ! أفهم أن يصاب الجندي
في المعركة أو أن تدمر مصانع الأسلحة ومخازن الذخيرة وكل ما يمكن الجندي من
القتال ، ولكن الذى لا أفهمه أن ييتم الأطفال وترمل النساء وتزهق أرواح
الشيوخ والضعفاء ، وأن يقتل ويجرح في الحرب العالمية الأولى وحدها « ٢١ »
مليوناً من الأنفس « البشرية » التى لم ترع للبشرية حقاً ولا كرامة ، والتى
لا تفرق بين الجندي في الميدان ، وبين الأم التى ترضع وليدها ، أو الشيخ الذى
يتعبد في مصلاه ، أو الطالب الذى يقبل على درسه .

ولست أفهم أن ينحدر الزعماء إلى صفوف القتلة السفاكين . فنسمع عن
هتلر زعيم المانيا ، الذى كان يريد أن ييؤ أمتة المسكان الأول من العالم المتحضر
يسعى إلى اغتيال دلقوس زعيم النمسا المرة تلو المرة ، حتى يخلو له وجه النمسا
فيضمها إلى جوفه المتعطش إلى الظلم والاستعمار .

ولست أفهم أن يسعى هذا الزعيم إلى اختطاف « هاشا » زعيم تشيكوسلوفاكيا
فيستدرجه إلى المانيا ، حتى إذا بلغها أسره وأملى عليه شروطه المجحفة بعد أن
هدده بالوان الذل والنكال إذا هو لم يذعن لما يريد .

ولست أفهم أن يأتي الفرنسيين إلى بلادنا فيدخلونها غصباتهم لا يرعون
لديننا حرمة فيتخذون من الأزهر الشريف مكاناً تبول فيه خيولهم ! .

ثم لا أفهم بعد ذلك ان تشهد فلسطين في هذه الأيام ألواناً من الوحشية أطلح
بها اليهود الأذال وجه الإنسانية فصبعوه بالسواد . وهل أشنع من أن تبقر بطون

الخطأ ، فيموت الجنين قبل أن يخرج من بطن أمه ، وتموت الأم قبل أن تسعد
بوليدها الذي حملته وهنا على وهن !! أقسم لو أن الحجارة تعقل لتفجر منها ماء
الرحمة دفاقاً ، ولسكنها الإنسانية في عصر العلم والمدنية ! فلنحني رؤوسنا لعصر
العلم والمدنية .

هذا كله - وهو قليل من كثير - لا أفهمه ولا أعقله حتى لا أكاد أنكره
كل الإنكار لولا أن يصغى الأمر الواقع فأؤمن بالحقيقة المرة .

إن من ينظر إلى الحاضر المائل أو الماضي القريب فتؤلمه وحشية الحروب
وفتك الإنسان بأخيه الإنسان ، لن يجد شفاء من الألم الذي ألمَّ به حتى يقرأ
عن نظم الحرب في حكومة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فيرى الإنسانية
بأكمل معانيها ، ويلبس البشرية بأكرم صورها . . . وإذ ذاك يذكر أن هناك
نبياً بعثه الله للناس كافة : فبلغ رسالات ربه : ينشر السلام ، ويحرر العقائد ،
ويكرم الإنسان ، ويعمل للحروب رسالة سامية لا تقوم إلا بها ، ثم يحلها بأداب
وفضائل تكاد تذهب بشرها وتطفىء نارها . لقد كان عليه السلام كلما أرسل
جيشاً قال « سيروا باسم الله وفي سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، ولا تمثلوا
ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً » وقد نهى في غزوة أحد عن قتل أعمى ، سلك في
حائط لبعض المنافقين فقام يحشو التراب في وجوه المسلمين ويقول لا أحل لك أن
تدخل في حائطى إن كنت رسول الله ! فارتفعت سيوف الصحابة فوق عنقه
تريد أن تهوى عليه لولا أن قال لهم رسول الله « لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى
البصر » . وفي غزوة خيبر أهدت امرأة يهودية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،
شاة مشوية قدأكثر السم في ذراعها لما علمت أن الذراع أحب اللحم إلى
رسول الله . فلما انتهش من ذراعها علم أنه مسموم فأخرج الأكلة من فيه . وقال

« اجمعوا إلى من هنا من اليهود » فجمع اليهود . فقال لهم : إني سأنالكُم عن شيء فهل أنتم صادقون فيه ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم ، فقال لهم . من أبوكم ؟ « قالوا : « أبونا فلان » قال « كذبتُم أبوكُم فلان » قال « صدقت وبررت » قال « هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا « نعم يا أبا القاسم وإن كذبتناك عرفت كذبتنا كما عرفت في أيينا » فقال : « من أهل النار ؟ » قالوا « نكون فيها يسيراً ، ثم تخلفوننا فيها » فقال لهم رسول الله « اخسئوا فيها فوالله لا تخلفكم فيها أبداً » ثم قال « هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا « نعم » قال « أجعلتم في هذه الشاة سمّاً ؟ » قالوا « نعم » قال « فما حملكم على ذلك ؟ » قالوا « أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك . وإن كنت نبياً لم يضرك . وجيء بالمرأة إلى رسول فقالت « أردت قتلك » فقال « ما كان الله ليسلطك على » فقال أصحاب رسول الله « ألا يقتلها ؟ » فقال لهم « لا » . وقد ذكرت بعض الروايات أنه أمر بقتلها بعد أن علم بوفاة بشر بن البراء بن معرور من جراء أكلتها . وسيان عندنا أقتلها آخر الأمر أم لم يقتلها فهذا أمر لا نبحث فيه الآن . وإنما الذي يعنيننا أنه لم يقتلها وبشر على قيد الحياة ، بيد أنه يمقت القدر وينكل بالخائن . وإن فعلتها لتشبه فعله بنى النضير ، فكل حاول قتل الرسول وإن اختلفت الوسيلة . هؤلاء يريدون أن يقدفوه بالرحا ، وهذه تدس له السم في الطعام . وقد حرق الرسول نخل بنى النضير ، ونقام من الأرض بعد أن أخذ أموالهم وأسلحتهم لغدرهم به . ولكنه لم يفعل شيئاً باليهودية لما غدرت به ، ومن هذا يتبين لنا مقدار نهيه صلى الله عليه وسلم عن قتل المرأة والتشبه بها .

ولما جاء مكرز بن حفص ليفدى سهيل بن عمرو ، وكان من أسرى بدر ، أراد عمر بن الخطاب أن ينزع ثنيتيه قبل أن يطلق سراحه ، فيداع لسانه ،

ولا يقوم على رسول الله خطيباً في موطن أبداً . ولكن الرسول نهاه عن ذلك ، فقال « لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً ! »

وقد رأت سودة بنت زمعه زوج الرسول أحد أسرى بدر وقد جمعت يدها إلى عنقه ، فرق قلبها لحاله ، وساءها ما أصبح فيه من ذلة وهوان ، فخاطبته قائلة : أي أبا يزيد : أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم ! إلا منكم كراماً !! فعجب الرسول من أمرها ، وقال غاضباً : « يأسودة أعلى الله عز وجل وعلى رسوله تحرضين ! فقالت : يا رسول الله : والله الذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعته يدها إلى عنقه أن قلت ما قلت . فما كان من رسول الله إلا أن قال لأصحابه « استوصوا بهم خيراً »

ومع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن التمثيل بالعدو ، فقد كانت قریش تبجح ذلك لنفسها . فلم تكن تستحي أن ترد البر بالسوء ، والعطف بالقسوة ، والإنسانية بالوحشية ، واسننا نفترى عليهم أو ندعى كذباً . فهذا يوم أحد شاهد عليهم ، بل وهذه بطن حمزة أسد الله وأسد رسوله تشهد أنهم بقروها ، وهذه كبده تشهد أنهم مضغوها ، وهذه أذنه تشهد أنهم قطعوها ، وهذا أنفه يشهد أنهم جدعوه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . لقد حزن رسول الله لمقتل حمزة ، وامتلأ قلبه الشريف حقداً على قریش عندما مثلوا به ، حتى لقد هم أن يمثل بثلاثين منهم إن أظهره الله عليهم يوماً . لولا أن نزل الوحي من السماء يحمل هذا الأدب الخالد ، الذي يريد الله لرسوله والمؤمنين « وإن عاقبتهم فمعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون » وما سمع الرسول هذه الآية الكريمة حتى تأدب بأدب الله واستغفره ونهى أصحابه عن المثلة .

واقدر حُرِصَتْ حُكُومَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَنْ تَجْنِبَ الْمَدِينِينَ
وَبِلَاتِ الْحَرْبِ ، فَهَتَّ عَنْ قَتْلِ الْوَلِيدِ وَالْمَرْأَةِ وَالْأَعْمَى كَمَا قَدِمْنَا الْقَوْلَ ، إِلَّا أَنْ
الْمَدَنِي إِذَا انْقَلَبَ عَسْكَرِيًّا أُوجِبَتْ حَرْبُهُ وَلَوْ كَانَ امْرَأَةً أَوْ شَيْخًا . فَلَقَدْ حَدَّثَ
يَوْمَ الْفَتْحِ أَنَّ كُتُبَ حَاطِبِ بْنِ بَلْتَعَةَ كُتِبَتْ إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهَا فِيهِ بِمَسِيرِ الرَّسُولِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهَا ، ثُمَّ أُعْطَاهَا امْرَأَةٌ وَجَعَلَ لَهَا جَمْعًا عَلَى أَنْ تُبْلِغَهُ قُرَيْشًا ،
فَجَعَلَتْهُ فِي قُرُونٍ فِي رَأْسِهَا ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الرَّسُولُ ذَلِكَ أَرْسَلَ عَلِيًّا
وَالزَّيْبِرَ فَقَالَ انْطَلِقَا حَتَّى تَأْتِيَا رَوْضَةَ خَاخِ فَإِنْ بَهَا طَعْمِيَةٌ مَعَهَا كِتَابٌ إِلَى قُرَيْشٍ ،
فَانْطَلِقَا عَلَى وَالزَّيْبِرِ حَتَّى إِذَا بَلَغَا الْمَرْأَةَ اسْتَتَرَا لَهَا وَقَالَا مَعَكَ كِتَابٌ . فَقَالَتْ مَا مَعِيَ
كِتَابٌ ، فَفَتَشَا رِحَالَهُمَا فَلَمْ يَجِدَا شَيْئًا . فَقَالَ لَهَا عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهٌ ، أَحْلَفَ
مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا كَذَبْنَا ، وَاللَّهِ لَتُخْرِجَنِي السَّكَّتَابُ
أَوْ لَتُجَرِّدَنِيكَ » فَلَمَّا رَأَتْ الْجَدَّ مِنْهُ قَالَتْ : أَعْرِضْ وَأَعْرِضْ لِحَلَّتْ قُرُونُ رَأْسِهَا
فَاسْتُخْرِجَتِ السَّكَّتَابُ مِنْهَا فَدَفَعَتْهُمَا إِلَيْهَا فَأَتِيَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ . وَآوَكَدَ أَنَّ الْمَرْأَةَ
لَوْ امْتَنَعَتْ عَنْ أَنْ تُخْرِجَ السَّكَّتَابَ لَجَرِّدَاهَا ، وَلَوْ امْتَنَعَتْ بَعْدَ تَجْرِيدِهَا لَكَانَ
لَهُمَا مَعَهَا شَأْنٌ آخَرٌ ، فَلَرَبَّمَا قَتَلَاهَا أَوْ أَسْرَاهَا أَوْ ضَرَبَاهَا حَتَّى تُعْطِيَهُمَا السَّكَّتَابُ .
لَأَنَّهُمَا وَالْحَالَةَ هَذِهِ لَمْ تُعَدَّ مَدَنِيَّةً مُسَالِّمَةً ، وَإِنَّمَا أَصْبَحَتْ بِمَجْدَةِ مُحَارَبَةٍ تَكِيدُ لِلْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ . فَيَنْبَغِي أَنْ تُعَامَلَ كَمَا يُعَامَلُ الْمُحَارِبُ . وَلَقَدْ رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مَرَّ بِامْرَأَةٍ قَتِيلَةٍ فِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ فَقَالَ : مَنْ قَتَلَ
هَذِهِ ؟ قَالَ رَجُلٌ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : وَلَمْ ؟ قَالَ نَازَعْتَنِي فَأَتَمَّ سَبْقِي : فَسَكَتَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ يَقْدِفُ الْحِصُونَ أَوْ يُضْرِبُ الْمَدَائِنَ إِلَّا إِذَا امْتَنَعَتْ
عَنِ التَّسْلِيمِ وَكَادَتْ لَهُ مِنْ خَلْفِ أَسْوَارِ الْحِصُونَ . فَهُوَ لَمْ يَنْصَبْ عَلَى أَهْلِ الطَّائِفِ

المنجنيق إلا عندما تحصنوا وقذفوا المسلمين من أعلى حصونهم بالنبل، ولقد أعلن عليه السلام يوم ذاك أنه معتق من جاءه من الطائف، فقرر إليه عشرون رجلاً .

فالإسلام لا يحارب المدنيين إلا إذا انقلبوا محاربين كما فعلت المرأة التي نازعت رجلاً من المسلمين قائم سيفه يوم الخندق ، والمرأة التي همت بإفشاء أسرار المسلمين العسكرية يوم الفتح ، وإلا إذا اختلطوا بالمحاربين أو اختلط بهم المحاربون في حصن أو مدينة محصنة ، كما فعلت ثقيف يوم الطائف ، إذ يصعب بل يستحيل - والحالة هذه - النيل من المحارب دون أن يصاب المدني الآمن .

وإن الدروس التي تلقاها الصحابة في المدرسة الإسلامية الأولى أيام حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم هي التي أملت على الصديق أبي بكر رضى الله عنه قوله يوم ولي الخلافة وبعث جيش أسامة : - « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تملأوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تقمروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . » وهذه الفقرة التي يصور فيها الصديق رضى الله عنه - هدى الرسول صلى الله عليه وسلم في القتال ، إنما تبين لنا مقدار حرص الإسلام الحنيف على إشاعة المبادئ الإنسانية في الحروب تلك المبادئ التي يكاد يفقدها الباحث اليوم بين زحام الوحشية القاسية كما قلت في أول الحديث ، إن في تاريخ الإسلام قصة هي أشهر من علم في رأسه نار ، ولسكنا نسجلها ونحدث الناس بها المرة تلو المرة لأن فيها من آيات الرحمة والإنسانية والصفح الجميل ما يعجز عن وصفه القلم ولو ملك زمام البلاغة وأوتى إمارة البيان . تلسم هي قصة الفتح . .

يوم جاء رسول الله مكة فاتحاً بعد أن خرج منها طريداً ، فخطب أهلها

قائلا : يامعشر قريش ! ما ترون إني فاعل بكم ؟ . قالوا خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : فاني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء !!..

أى عنو هذا وأى صفح ! هذه قريش أمامه ذليلة مهانة ... قريش التي آذنته واضطهدته ، واثمرت به لتقتله ، ثم أخرجته وأصحابه من ديارهم وأموالهم وغزته في المدينة غير مرة ... إنها اليوم أمامه يستطيع أن يفعل بها مثل ما يفعل الناس في هذه الأيام بمن يسمونهم مجرمي الحرب ... ولكنه العفو الجميل ، والصفح الخالد .

العُهود والمواثيق

إن ما قلته عن المبادئ الإنسانية في هذه الأيام أستطيع أن أقوله عن العهود والمواثيق ، فإن الدول اليوم قد نسيت الشرف والوفاء كما نسيت الرحمة والإنسانية، وآمنت بنقض العهود وخرق المواثيق كما آمنت بالنفسوة والوحشية ! حتى لقد أصبحت العهود نفسها مقدمات للعدوان والمعاهدات وسيلة القوى ينال بها من الضعيف ! وحسبي في هذا المقام ما فعلته إنجلترا الجريمة بمصر . فلقد وعدتها بالجلاء أكثر من سبعين مرة ... وما كانت تعد إلا لتنقض أو لتخذر أعصاب المجاهدين من أبنائها ، كي تنسبهم جرمها وتعدم عن جهادها . فلقد صرح جلادستون رئيس وزراء إنجلترا في مجلس العموم في ١٨ يولييه سنة ١٨٨٢ أن ليس لبريطانيا مطامع في مصر ، وهي تنوى بكل تحقيق أن تعرض على الاتفاق الاوربي تسوية المسألة المصرية تسوية نهائية . كما صرح في الثاني عشر من أغسطس من نفس السنة أن « ليس في نيتنا مطلقاً أن نحتل مصر ، وإذا كان هناك شيء لا نقدم عليه فهو ذلك الاحتلال لأن فيه مناقضة للمبادئ التي أعلنتها حكومة جلالة الملكة ، وللوعود التي وعدتها لأوروبا » وفي الرابع عشر من اكتوبر سنة ١٨٩٥ أعلن « السير » شارل ديلاك وكيل الخارجية البريطانية « أن الاحتلال الانجليزي مصدر ضعف لانجلترا ، وحيث أننا لا نرى أية مصلحة في البقاء بمصر ، فلا يوجد سبب يمنع جلاءنا عنها !! » وفي الرابع عشر من يناير سنة ١٨٩٦ أرسل جلادستون إلى الزعيم مصطفى كامل رحمه الله يقول « إن زمن الجلاء على ما أعرف قد حل منذ بضع سنوات ... ! » وحتى اليوم ... وبعد تسعة وستين عاماً من دخول الانجليز مصر ، ومن وعدهم إياها بالجلاء عنها ، لم نر جلاءً أو شيئاً يشبهه

الجللاء ! بل أن شباب مصر كلما ذكروها بحقهم أو بوعودها ، فنادوا بالحرية والاستقلال وحاربوا الظلم والطغيان ، لم يكن جزاؤهم إلا نكالا ودمارا ! حتى لقد افتحم الانجليز الأزهر الشريف يقذفون من احتفى به من دعاة الحربه وأنصار الكرامة الإنسانية بنيران المدافع والبنادق ، فلم يرعوا البيت الله حرمة ، ولم يجعلوا للوطنية ودعائها كرامة أو مقاما . وتاريخ الانكليز في مصر حافل بالغدر والإجرام ، والظلم والوحشية ! فليست أحداث دنشواي ، والبدرشين ، والشوبك والعزيرية وغيرها بخافية على متابع الحركة الوطنية في مصر الحديثة . أنها كلها دليل على أن الشرف الدولي قد ضاع في هذه الأيام . وليست انجلترا وحدها هي التي ضاع شرفها ، فإن كثيراً من دول أوربا اليوم تجعل نقض المعهود وخرق المواثيق وإذلال الأحرار جزء من سياستها وفترة من برنامجها فلقد حدث في الحرب العالمية الأولى أن أغرق الألمان الباخرة الانكليزية الكبيرة لوزيتانيا عند الساحل الايرلندي الجنوبي ، ففرق ركابها وكان بينهم أكثر من مائة أمريكي ، فاحتجبت أمريكا وتبادلت مع ألمانيا المذكرات حتى تعهدت الأخيرة سنة ١٩١٦ بأن لا تفرق سفينة تجارية قبل أن تنذرها وتعمل على سلامة ركابها ... ولكن الألمان لم يلبثوا أن نقضوا عهدهم بعد عام واحد فأعلنوا أن غواصاتهم سوف تفرق كل سفينة تجارية دون أن تنذرها أو تعمل على سلامة ركابها ، أو تفرق بين سفن الدول الحاربة وسفن الدول المحايدة ! ولعل تلك المعاهدة التي فرضها هتلر على هاشا زعيم شيكوسلوفاكيا في الحرب العالمية الأخيرة بعد أن استدرجه إلى ألمانيا أكبر دليل على أن المعاهدات أصبحت وسيلة القوى إلى النيل من الضعيف كما قدمت فاذا حاول المستضعف أن يشكو أو يعترض قيل له إن بيننا معاهدة يجب احترامها والعمل بها ! .

وأؤكد أن ما عرفه الحلفاء عن نكث هتلر للعهود كان دافعاً لهم إلى رفض ما عرضه عليهم من الصلح بعد تسليم فرنسا بشهر « حتى أن بعض السلميين من الانجليز - كما يقول الأستاذ العقاد - كان يخطب في تحييد الصلح العاجل ويفند أسباب الحرب فأوشك أن يبلبل أذهان سامعيه لولا أن تصدى له سائل بسؤال موجز لا يتجاوز أربع كلمات : هل تثق بعهود هتلر ؟ فكانت فصل الخطاب » إن خير ما يبين لنا قيمة المعاهدات عند دول اليوم قصة المستشار الألماني في بداية الحرب العظمى .

فاقد كانت بروسيه ، وفرنسا ، وبريطانيا ، والنمسا ، والمجر ، وروسيا قد اتفقت سنة ١٨٣٩ على احترام حياد بلجيكا : وأكد مؤتمر السلام الدولي في لاهاي سنة ١٩٠٧ وجوب احترام الدول لحياد الدولة المعترف بحيادها ، فلا تدخل دولة ما أرضها ، ولا تتخذها ممراً لجنودها ووقعت ألمانيا على هذا القرار كما وقعه غيرها من الدول العظمى ولكنها لم تلبث أن أرسلت إلى بلجيكا مذكرة شديدة اللهجة تطلب فيها السماح لجيوشها بالمرور من الأراضي البلجيكية حتى تتمكن من حرب فرنسا . فكان طبعياً أن ترفض بلجيكا هذا الطلب الجائر الذي ينتهك حرمة حيادها ، لأنها - على حد تعبيرها لألمانيا ، إذا قبلت ذلك الطلب ، أضاعت شرفها وكرامتها وأخلت بالواجب العظيم المقدس نحو أوروبا بأسرها .

والذي يهمنا هو الذي حدث بعد هذا ، فافقدت إنجلترا على سياسة ألمانيا ، وأندرتها بالحرب إذا لم تعدل عن خرق حياد بلجيكا ، فكان جواب المستشار الألماني ما نسجله آسفين لضياح الشرف الدولي : - « ان من الهول ما تنويه حكومة جلالة الملك البريطاني . ومما يعز على أن أتصور جلالته قابلاً دخول الحرب مراعاة لقصاصه ورق يسمونها معاهدة واتفاقاً على حياد أرض !!!

وكم من مرة خرقت حرمة مثل هذا الحياد إجابة للضرورات العسكرية !!! » ثم لم يلبث أن أعلن المستشار في مجلس الريشتاغ قوله « أن الضرورة احدثت بنا والضرورة لا تعرف شريعة ولا تعترف بنظام !!! »

وإذا كانت الضرورات الحربية قد أصبحت تنكر في هذه الأيام الشريعة والنظام ، وتقر الفوضى وقانون الغابة .

ثم إذا كانت العهود والمواثيق قد أصبحت « قصاصات ورق » كما يقول مستشار الإمبراطورية الألمانية « بتان هلفينج » فأنا لا نعجب من نكثها ولو كان النكث قبل جفاف المداد !

لكننا نسجل الذي قدمنا من القول ، ثم نتبعه بموقف الحكومة الإسلامية الأولى من العهود والمواثيق كي يقارن القارئ الكريم بين الموقفين وينظر كيف تميز بضدها الأشياء ...

لقد كان عليه السلام أحرص ما يكون على الوفاء بعهده ، والعمل بميثاقه . فما عاهد قوماً ونقض ، وإن كان قد عوهد وغدر به المرة تلو المرة !

وإما كان هذا الأدب الخالد من عند الله سبحانه ، فهو الذي علم نبيه الوفاء وحرّم عليه النكث فقال « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً . » وقال « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون »

وقد ردد عليه السلام هذه المعاني السامية في أحاديثه فقال « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحان عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء » وقال « ما نقض قوم العهد إلا أدبيل عليهم العدو » وقال « لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به بقدر غدرته » . وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه

وسلم المثل الأعلى في البر والوفاء عندما عاهد قريشاً في سنة الحديبية على وضع الحرب عشر سنين ، وردّ القرشيين الذين يأتونه مسلمين ، إذ أنه وادعهم حتى بدءوه بالحرب . فقد كانت خزاعة وبنو بكر على شيء كبير من العداء ذهبت حدته بعد صلح الحديبية ، فانضمت احدهما « قبيلة خزاعة » إلى رسول الله . وانضمت الأخرى « بنو بكر » إلى قريش . ولما كان خالد قد رجع من سرية مؤته دون أن يحرز نصراً ، فقد ظن بنو بكر بالمسلمين ضعفاً ، ووجدوا في ذلك اسنح فرصة للقضاء على خزاعة ، فخرجوا بتحريض عكرمة بن أبي جهل القرشي ، وقتلوا خلقاً كثيراً ، فسارع رجل من خزاعة يدعى عمرو بن سالم إلى رسول الله صلى الله وسلم يشكو إليه نقض قريش وبنى بكر العهد ، ويسأله النصرة والمعونة . فوعده الرسول النصرة وعزم على محاربة قريش وفتح مكة . فهو صلى الله عليه وسلم لم يحاربهم إلا بعد أن حاربوه ، ولم ينقض العهد إلا بعد أن نقضوه ، شأنه في كل عهد وميثاق . ثم انه - والعهد يكتب - جاءه رجل من قريش يدعى أبا جندل يريد الإسلام ، فردّه إلى قريش والرجل يذوب حسرة ويقول يا معشر المسلمين ارد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ! ألا ترون ما لقيت ؟ . فيقول له الرسول « يا أبا جندل : اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً واعطيناهم على ذلك وأعطونا ، عهد الله وإنا لا نغدر بهم » وقد جاءه رجل يدعى أبا رافع موفداً من قريش ، فأسلم وقال « لا أرجع إليهم » فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم « إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد . أرجع إليهم فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع » وقد جاءه أبو بصير مسلماً فارسلت قريش في طلبه رجلين يذكّران رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعهد الذي بينهما ، فدفع الرسول أبا بصير إليهما ،

ولكنه تحايل حتى قتل احدهما . وهم أن يقتل الآخر لولا أن فر راجعاً إلى مسجد رسول الله في المدينة . فقال الرسول لما رآه : « لقد رأى هذا فرعاً » فقال الرجل « قتل والله صاحبي وإني لمقتول » ولما جاء أبو بصير قال « يا بني الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم فأوفاني الله منهم » ولكنه سمع من الرسول كلمات عرف منهم أنه سوف يرده . فخاف أن تهلكه قريش ، وسارع إلى ساحل البحر . وانضم إليه أبو جندل وكل من خرج من قريش مسلماً ورد . وكون الجميع عصابة تخرج إلى قوافل قريش فيقتل رجالها وتسلب أموالها . فأرسلت قريش إلى رسول الله تناسده الله والرحم أن يؤوى من يأتيه منها مسلماً ولا يرده حتى لا يفعل مثل ما فعل أبو بصير ، فيضيع عليها مالها ، ويقطع طريق تجارتها . فقبل الرسول ذلك وانزل الله تعالى قوله « وهو الذي كف أيديهم عنكم ، وكف أيديكم عنهم ، ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » ولم يكن هذا الشرط من عهد الحديبية نافذاً على النساء . فقد جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط تريد الإسلام ، فخرج أخوها عمارة والوليد يطلبانها من رسول الله ، فأبى ذلك عليهما . وقد جاءت سبيعه الأسلمية مسلمة فخرج زوجها في طلبها ، فاستحلفها رسول الله أنها لم تخرج بغضاً لزوجها أو لحدث أحدثته في قومها وإنما رغبة في الإسلام ، خلعت . فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم مهرها إلى زوجها ولم يردها عليه لأنها لا تحل له بعد إيمانها إذ تحرم الشريعة الإسلامية زواج المسلمة من غير المسلم كما تحرم زواج المسلم من المشركة . وفي ذلك يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن . الله أعلم بإيمانهن . فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار . لهن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما انفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ،

ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، واسألوا ما انفقتم وليسألوا ما أنفقوا . ذلك حكم الله
بحكم بينكم ، والله عليم حكيم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عاهد قوماً فنقض بعضهم العهد ،
ورضى البعض الآخر بذلك فأقروهم على ما فعلوا وحرصوهم على العدوان عدمهم
كلهم ناقضين كما فعل بأهل مكة عندما نقض بنو بكر العهد بتحريضهم .
وكان عليه السلام إذا عاهد قوماً فتحالفت فئة ، وتحالفت مع عدوه فئة
أخرى ، ثم اعتدت الفئة التي انحازت إلى عدوه على الفئة التي انحازت إليه فكأنما
اعتدت عليه . ولهذا غضب لاعتداء بني بكر على خزاعه وحاربها .

الفضيلة في حروب الاسلام

أن المتتبع لحروب الرسول صلى الله عليه وسلم والباحث عن أسبابها ودوافعها يدرك في سهولة ويسر أن الدين هو أصل الجهاد في الإسلام أو أن تحرير العقائد وتأمين الدعوة إلى الله وردع البغاة المعتدين هو الغاية من حروبه .

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بعث بهذا الدين ليتمم مكارم الأخلاق ، فهل تظن أن جنود الإسلام ينسون الدين والخلق والفضيلة عندما يدعون ليقاتلوا في سبيل الله ، وهم إنما يحاربون من أجل الدين والخلق والفضيلة ؟ . إن الحروب الإسلامية لم تكن تحول بين المسلمين والصلاة . وقد كان عليه السلام يجمع الصلوات في وقت واحد إذا حبسه المشركون عنها وظل كذلك حتى نزلت صلاة الخوف بعسفان كما يقول أبو عياش الزرقى في حديث له « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بعسفان فصلى بنا الظهر ، وعلى المشركين يومئذ خالد بن الوليد . فقالوا لقد أصبنا منهم غفلة . ثم قالوا : إن لهم صلاة بعد هذه هي أحب إليهم من أموالهم وأبنائهم فنزلت صلاة الخوف بين الظهر والعصر ففرقنا فرقتين وفي هذه الصلاة يقول أبو هريرة رضي الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نازلاً بين ضبجان وعسفان محاصراً للمشركين فقال المشركون : إن لهؤلاء صلاة هم أهوى إليها من أبنائهم وأموالهم اجتمعوا أمركم ثم ميلوا عليهم ميلاً واحدة . فجاء جبريل فأمره أن يقسم أصحابه نصفين » وقد صلى الرسول صلاة الخوف بغزوة ذات الرقاع فكان إذا نودى للصلاة صلى بطائفة ركعتين ثم بالطائفة الأخرى ركعتين أخريين ، وإذا صلى بطائفة قامت الأخرى تحميتها وتدفع عنها العدو . فكان عليه السلام يصلي أربع ركعات والقوم يصلون ركعتين .

والذي أريد أن أقوله الآن أن قوماً يصلون في ساحة القتال ، ويذكرون قول ربهم « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقول رسولهم : « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً » لا يتحدثهم أنفسهم بمنكر قط ، وإنما تراهم دائماً مثلاً عالياً للطهر والفضيلة والاستقامة . وهذا ما سجله التاريخ لجنود محمد عليه السلام .

فكما حرصت حكومة رسول الله على تطهير الجيش من عناصر الفتنة والخلدان ، لقد حرصت على تطهيره من عناصر الرذيلة والفساد . فلقد حدث ذات يوم من عام تسع أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للجد بن قيس أحد بني سلمة « يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر (الروم) ، فقال يارسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ! فوالله لقد عرف قومي أنه مامن رجل بأشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى أن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر » فأعرض عنه رسول الله ، ونزل الله قرآنًا يسجل فيه هذه الحطة ، ويحذر المؤمنين من أمثالها فقال « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » ولقد امتلأت نفوس الصحابة إيماناً بأثر الطهر والفضيلة في التمجيل بنصر الله ، فكنت ترى عمر رضي الله عنه يكتب لقائد جيشه سعد بن أبي وقاص قائلاً « أمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون لمعصية عدوهم الله ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية ، كان لهم الفضل علينا وإلا ننصر عليهم بفضلنا ، لم تغلبهم بقوتنا ... ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وإن أسأنا ، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم » . وصدق عمر ! .

فهاهى ذى جيوشنا تذهب لتخرج اليهود من فلسطين ، فيسلط الله علينا الدول الكبرى ويخيب رجاءنا فى مجلس الأمن ، فلا ننال حقا ، ولا نرد باطلا . وإنما نمود وقد طاردتنا الخيبة ، ولاحقنا الخسران . وما ذلك إلا نتيجة الفساد الذى عم الشرق العربى فدفع به إلى الخلاعة والمجون والميوعة والاستهتار . ولو عرفت حكومات الشرق العربى وأبناؤه حق الله فأدوه كاملا خالصا ، لما أصابهم الذى أصابهم ... فلئن تأمرت الدول بنا ، وتفكرت لنا وآزرت عدونا لكان لنا من تقوى الله والإخلاص له مخرجا من كل ضيق ، ونجاة من كل مأزق ، والله كفيل بأن يقذف فى قلوب أعدائنا الرعب كاقذفه فى قلوب الذين كفروا يوم بدر أو يفرق جمعهم ويخذل بينهم كما خذل بين الأحزاب يوم الخندق ... والله جنود السموات والأرض ... ولسكننا - وبالله الأسف - قد عصينا الله وعصينا الرسول ، وأقبلنا على اللهو الباطل نبتاعه وإيم الله بأموالنا ، فسلط الله علينا من لا يخافه ولا يرحمنا ، ولن نزال كذلك ما تركنا كتاب الله وسنة رسوله ، فإن عدنا تائبين مخلصين ، وجدنا من توفيق الله ما يعيننا على أعداد العدة وتسليح الجيش ، وما يصرف الدول الكبرى عن مؤازرة عدونا والنأمر بنا ، ثم ما يعجل بالنصر لنا ، ولينصرون الله من ينصره ، إن الله تقوى عزيز .

فهل تذكر الحكومات والشعوب هذه النصيحة المخلصة من مواطن يفيض قلبه بالإخلاص لوطنه الإسلامى الذى فرقه الفساد وأنهكته الرذيلة ؟ وهل تنفض أيديها من تلكم الجاهليات التى أنتها من الغرب ، والتى بدأ الغرب نفسه يشعر بخطرها وضررها ، ويحاول أن ينفض يده منها ؟ ألم تر إلى فرنسا كيف أطاح بها اللهو والفساد والترف فذلت لجبروت الألمان فى الحرب العالمية الثانية ، وخضعت لسلطانهم فى أقل من دورة القمر ، ووقف زعيمها «بيتان» يعرض بنان الندم فيقول

« لقد دمرت روح الانغماس في اللذات ماشيدته روح التضحية » ثم ينصح مواطنيه قائلاً « أصلحوا من أخلاقكم ، ودعوا الترف واللذات ، وأقبلوا على العمل بصبر وتضحية » .

ألا ما أجل الإسلام حين أمر بالتقوى ودعا إلى الفضيلة ونفّر العسكريين والمدنيين من الرذيلة .

وما أجل سلوك الجنود المسلمين فيما يفتحونه من أمصار . ثم ما أقبح ما يلجأ إليه جنود أوربا اليوم من استخفاف بالأعراض ، واستهتار بالشرف ! .

القتال في أشهر الحرام

نزل في سرية عبد الله بن جحش قول الله تعالى :- « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير . وصدد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل » وظاهر الآية يحرم القتال ، إذ هكذا سياقها (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه : قل قتال فيه كبير ، لا يرضاه الله ، فلا تعودوا إليه أبداً ، اعلمكم تفعلون) .

ويرى بعض الأئمة أن هذه الآية لا تحرم القتال في الشهر الحرام لأن لفظ القتال فيها نكرة في حيز مثبت فلا تعم . وقد جاء في تفسير المنار خلاف ذلك . إذ استدلل بتنكير لفظ القتال في السؤال والجواب على التنويع « كأنه قيل : أيصح أن يقع فيه أى قتال ما ؟ ... قل قتال فيه كبير ، أى أن أى قتال فيه ، وإن كان صغيراً في نفسه أمر كبير مستنكر وقوعه فيه اعظم حرمة » .

وتحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالسنة ، إذ ثبت أن الرسول عليه السلام حاصر الطائف لعشر بقين من الحرم سنة ثمان للهجرة كما ثبت أن سرية الخطب - التي قادها أبو عبيدة بن الجراح وكان فيها عمر وثلاثمائة من المهاجرين - خرجت في شهر رجب أحد الأشهر الحرم سنة ثمان أيضاً .

وأما القول بأن ناسخ تحريم القتال هو قوله تعالى :- « فاذا انسلكوا الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » أو قوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » أو قوله « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » هذا القول بأن إحدى هذه الآيات هي التي نسخت تحريم القتال قول لا يستقيم

لأن هذه الآيات نزلت سنة تسع بينما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم لحصار الطائف وخرج أبو عبيدة رضي الله عنه في سرية الخبط سنة ثمان .
فهذه الآيات ليست ناسخة لتحريم القتال . وإنما هي مؤكدة له ، إذ سبق فسخه بالسنة المطهرة . فهي بمثابة إقرار لما استقر الأمر عليه .

الأسرى

كان عليه السلام يفادى بعضهم بأسرى المسلمين كما فى سرية عبد الله بن جحش إذ أسر الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله وهما أول أسيرين فى الاسلام فبعثت قريش فى فدايهما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا فإننا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما تقتل صاحبنا كم » ويقصد الرسول بصاحبيه سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان . فقد تركا سرية عبد الله إلى بغيرهما ضل فأسرتهم قريش . ولما سمعت قريش قول الرسول أرسلت سعداً وعتبة ، فرد الرسول عليهما الحكم وعبد الله .

وكان عليه السلام يحرص على مفاداة أسرى المسلمين كل الحرص فقد فدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل وقد وقع فى سهم سامة بن الأكوع جارية حسناء عندما كان فى سرية أبى بكر إلى نجد . فأخذها منه رسول الله وفدى بها أسرى المسلمين بمكة .

وكان عليه السلام يفادى بعض أسرى المشركين بالمال كما فى غزوة بدر . فقد شاور أصحابه فى أسرى قريش . فأشار عليه الصديق بأخذ الفدية منهم حتى ينتفع المسلمون بها ، وعسى أن يهديهم الله إلى الاسلام فيزداد الرسول بهم قوة وأشار عليه عمر بقتلهم لأنهم أعداء الله وأئمة الكفر وشيوخ الضلال ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم رقى لقول أبى بكر وفادى الأسرى بالمال فساكن الواحد منهم يدفع ما بين الألف درهم إلى الأربعة آلاف . أما الذين لا مال لهم فكانوا يفادون أنفسهم بالعمل كأن يعلوا أولاد الأنصار القراءة والكتابة .

وكان عليه السلام يمن على بعض الأسرى فيطلق سراحهم دون أن يفادوا أنفسهم بشيء . فقد كان من بين أسرى بدر شاعر يدعى عبد الله بن عمير خاف على نفسه الهلاك فذكر الرسول بخمس بنات له لا يعولهن غيره وأعطاه ميثاقاً ليمتنعن عن قتاله ما عاش . ففرق الرسول له ومن عليه بحريته .

وكان صلى الله عليه وسلم يقتل بعض الأسرى إذا كانت في موتهم نفع للمسلمين أو في حياتهم ضرر بهم . فقد أمر بقتل اثنين من أسرى بدر هما النضر ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط لشدة عداوتهم الله ورسوله . أما النضر فقد سأل مصعب بن عمير أن يكلم الرسول في شأنه عسى أن يعفو عنه ولا يقتله . ولكن مصعباً ذكره بما كانت يقول في كتاب الله ورسوله من سوء القول وهجر الكلام . فضرب على بن أبي طالب عنقه ، ودعا الرسول ربه أن يغني المقداد من فضله حيث أنه أسر النضر فخلص المسلمين منه . وأما عقبة فقد قال عند ما أمر الرسول بقتله « فمن للصبيّة يا محمد ؟ ! » قال « النار ! » ولم يلبث عاصم بن ثابت أن قتله فأمن المسلمون شره ونجوا من كيده . وقد قتل المسلمون الشاعر الذي من عليه رسول الله يوم بدر ، عند ما نقض عهده فخارب الرسول في أحد ، فقد شاء الله أن يجعله أسيراً لهم .

وقد نزل بعد بدر قول الله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » يعلم ما يليق بكل حال . وهكذا يعاتب الله رسوله وأصحابه إذ فاؤاد أسراهم بالمال ولم يقتلوهم . والإسلام يومئذ ضعيف والمسلمون قلة . بينما الشرك وأهله في قوة وكثرة ، فقتل المشركين - والحال هذه - أجدى على الإسلام من فدائهم بالمال ومن أجل هذا العتاب السماوي بكى الرسول وصاحبه أبو بكر . فلما رأها عمر

بيكيان قال : « يا رسول الله أخبرني من أى شيء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباً كيت لبكائكما » فقال عليه السلام « أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء . ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة وأشار عليه السلام إلى شجرة قريبة .

فلما عز الإسلام ، وقويت شوكته ، أنزل الله سبحانه قوله : « حتى إذا انخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما مناً بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » فأصبح النبى صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية مخيراً بين أمرين لا ثالث لهما ، وهما المن والفداء فظاهر الآية يمنع القتل بعد الأسر كما يذكر السيوطى فى أحكام القرآن .

ومن أجل ذلك قال ابن عمر للحجاج لما رفع إليه أحد الأسرى ليقتله : — ليس بهذا أمرنا إنما قال الله تعالى « فإما مناً بعد وإما فداء » .

هل يستعان بغير المسلم ؟

لم يكن عليه السلام يأذن للمشرك بالقتال معه ، حتى يؤمن بالله ورسوله .
فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « خرج النبي صلى الله عليه وسلم قبل بدر . فلما كان بحرة الوبرة (موضع على أربعة أميال من المدينة) أدركه رجل يذكر بالجرأة والنجدة ، فترح به الأصحاب . فقال للنبي صلى الله عليه وسلم جئت لأتبعك وأصيب معك . فقال تؤمن بالله ورسوله ؟ قال لا قال فارجع ، فلن أستمع بمشرك ، ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة ، فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم كالمرة الأولى ، ثم رجع فأدركنا بالبيداء فقال كالأول فقال له النبي صلى الله عليه وسلم تؤمن بالله ورسوله ؟ قال نعم ، فقال له انطلق » فالرسول صلى الله عليه وسلم قد رده مرتين لشركه ، حتى إذا أسلم في الثالثة استعان به . والسرف في ذلك ما قدمت من حرص الحكومة الإسلامية الأولى على تطهير الجيش من تلك العناصر التي أن خرجت مع المسلمين ما زادتهم إلا خبلاً . فأنشرك إذا حارب في صفوف المسلمين ، لا يفيدهم كثيراً إذ أن غايته في أغلب الأحيان السكسب المادى .

والذى تحركه للمادة ليس كالذى تحركه العقيدة والفكرة والمذهب فيقاتل من أجل هدف معنوى . فالأول يحارب ويرجو النجاة كي ينعم بما ينشد من المال ، فتراه فى قتاله جباناً حذراً ، لا ينصر من ضعف ولا يكتر من قلة . والثانى يحارب وهو حريص على الموت كل الحرص لأن موة لا يحول بينه وبين ما يريد من حياة الفكرة التي يناضل من أجلها ، كما يحول موت صاحب الهدف

المادى بينه وبين ما يريد من المال والغنى . فتراه أشد الناس شجاعة وبسالة ، ينطلق كما ينطلق السهم قوياً مهاسكاً ، يعمل في عدوه الضرب والطعن حتى يقتل أو يفر منه الموت الذى حرص عليه فتوهب له الحياة .

ثم إن المشرك عدو لدود للإسلام ، قد تحدته نفسه بالكيد للمسلمين حين يكون الكيد أبلغ ما يكون أثراً ، وأكثر ما يكون مضاء . وهو عندما يدخل في صفوف المسلمين مسلحاً ، يكون أقدر ما يكون على النيل منهم ، أو يكون نيله منهم أنكى بهم وأعظم خطراً . فلو حارب المسلمين من خرج معهم من المشركين وأهل النفاق لاضطربت صفوفهم بالفوضى ، ولكانوا لقمة سائغة في جوف العدو . ومن أجل ذلك تعتمد الجيوش المعاصرة إلى نفر من جنودها فتلبسهم لباس عدوها وتدفع بهم إلى صفوفه عن طريق الهابطات (الباراشوت) أو غير ذلك من الطرق . فما تكاد تبدأ الحرب حتى ينشر هذا النفر المتنكر ألوان الفوضى والاضطراب بين صفوف العدو الذى اطمئن إليه وظنه منه بما يجد من لباسه .

ولهذا كانت استعانة الرسول بالمشركين قاصرة على سلاح إستيعره أو حديث يستشف به منهم أمر عدوه ، إلى غير ذلك من وسائل العون التى لا تمكن المشركين من المسلمين كما يمكنهم القتال في صفوفهم . فقد استعان عليه السلام بسلاح صفوان بن أمية ودرعه يوم حنين وهو يومذاك على دين الشرك ، فأرسل إليه يقول « يا أبا أمية أعزنا سلاحك هذا تلقى فيه عدونا غداً . فقال صفوان أغضباً يا محمد ! قال بل عارية وهى مضمونه حتى تؤديها إليك . فقال صفوان ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح . كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل عيينه الخزاعى عيناً له إلى قريش يوم الحديبية فجاءه بخبرها . وكان

عيننة يوم بعثه رسول الله كافرأ . ومن ذلك يستنتج ابن القيم « أن الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة لأن عيننة الخزاعي العين كان كافرأ إذ ذاك . وفيه من المصاححة أنه أقرب إلى اختلاطه بالمدو وأخذة أخبارهم » .

وأما أهل الكتاب فلاستعانة بأساحتهم ، أو الخذهم عيوناً على أعداء المسلمين أولى من الأستعانة بالمشركين ، وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أراد حفر الخندق ، استعمار من اليهود آلات الحفر ، والتحالف الحربي جائز معهم إذا جمعتهم مصالح مشتركة إلا أن يكون المسلمون في غنى عن معونة غيرهم .

فلقد حالف عليه السلام اليهود أول ما قدم المدينة فقال في وثيقته « وإن بينهم النصر على من دهم يثرب » ولقد قدمنا القول عن ذلك في الجزء الأول من الكتاب فقلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم « لم يكن يرى في المسلمين - أول عهدهم بالمدينة - من القوة ما يمكنهم من القيام ، وحدهم في وجه قريش ، فعقد هذه الحائفة الدفاعية بهذا النص من وثيقته كي يجد من ينصره على قريش أو غير قريش ممن يكيد له ويعاديه ، وقد ترك عليه السلام كلمة النصر عامة في هذا النص كي تشمل المعاونة المادية إلى جانب المعاونة الحربية ، وقد جاء في الوثيقة أيضاً « أن الرسول إذا دعا اليهود إلى صالح حليف المسلمين فإنهم يصالحونه ، وإن اليهود إذا دعوا المسلمين إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين » وإنما فعل الرسول ذلك توثيقاً لعرى التضامن الحربي بين المسلمين واليهود ، وتأكيداً للوحدة التي أرادها لعناصر الأمة اليتربية ، وقد استثنى عليه السلام من هذا النص الأخير من حارب الدين ، فليس ينبغي للمسلمين أن يصالحوا من حارب دينهم ، بل ليس لليهود أن يصالحوا أعداء الإسلام ، ثم يدعوا المسلمين إلى مصالحة من صالحوا^(١) »

ولقد جاء في وثيقته صلى الله عليه وسلم أيضاً « أن اليهود ينفقون مع المسلمين

ماداموا محاربين » وقد علقنا على هذا النص بقولنا « فإذا ضم الجيش معسكرين معسكراً للمسلمين وآخر لليهود ، كان على كل معسكر أن يتكفل بنفقته ، فيبتاع الأسلحة ويطعم الجند من ماله الخاص ، أما أن ينفق المسلمون على اليهود إذا هم خرجوا معهم مقاتلين ، أو يظن اليهود أن نفقتهم واجبة على المسلمين بما خرجوا معهم لقتال عدوهم ، فذلك مانفاه الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا النص من وثيقته ^(١) . »

ولست أجد فيما بين يدي من مراجع نصاً صريحاً يثبت اشتراك اليهود مع المسلمين في الحرب ، أو دعوة الرسول لهم إلى العمل بما نصت عليه الوثيقة من المعاونة الدفاعية ، فلقد تبين له صلى الله عليه وسلم من جدلهم بالباطل ومحاولتهم التفرقة بين المسلمين ما تنطوى عليه نفوسهم من حقد للإسلام ، فضمهم إلى قائمة الذين إذا خرجوا معه ما زادوه إلا خبالاً . وأكبر ظني أن الرسول صلى الله عليه وسلم لو قد وجد منهم موادة وإخلاصاً لدعاهم إلى معونته يوم بدر . ومن هذا أرى أن الإسلام يجيز مخالفة أهل الكتاب وطلب العون منهم ، متى أظهروا الود والإخلاص للمسلمين ، أما إذا تنكروا ، فلا خير فيهم . وإن اليهود الذين حالفهم الرسول هم اليهود الذين نكّل بهم وأجلاهم لما أصرّوا على الكيد للإسلام والديس للمسلمين .

القوة المعنوية

وتقد حرص الإسلام على انتزاع عوامل الضعف من نفوس المسلمين حتى لا تذهب ريحهم أو تضعف شوكتهم ، وعوامل الضعف قد تأتي بعد النصر غروراً واستهتاراً ، كما تأتي بعد الهزيمة يأساً وقنوطاً ، وكلا الأمرين حاربه الحكومة الرشيدة أو حاربه الإسلام الخفيف بعبارة أدق .

فلقد انتصر المسلمون في بدر وهم قلة . انتصروا على عدو يفوقهم عدداً وعدة ، ومثل هذا النصر قد يدفعهم إلى الاستهتار بعددهم والغرور بقوتهم ، وهذا ما أراد الله سبحانه أن ينتزعه من قلوبهم ، فذكرهم بالحقيقة الواقعة التي قد تغيب عن عقولهم . . . ذكرهم بأن هذا النصر الذي أحرزوه إنما هو من عند الله لا من عند أنفسهم ، فنزل قوله الكريم : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ! وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ! » .

ويوم حنين إذ تسال العجب إلى نفوس المسلمين وظنوا أنهم لا يغالون من قلة ، فكان جزاؤهم الهزيمة النكراء ، ونزل القرآن الكريم ينتزع من نفوسهم هذا الغرور والاستهتار ويعاتبهم عليه ، وذلك قوله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها . . . »

ولئن كان الله سبحانه قد حارب الغرور والاستهتار في نفوس عباده المحاربين ، لقد حاربت حكومة رسوله اليأس والقنوط في نفوسهم أيضاً ، إيماناً منها بأثر القوة المعنوية في تقرير مصير الحروب .

فقد حدث أن هزم المسلمون في أحد ، فأزدادت قوة العدو المعنوية حتى
لقد سارع شيخهم أبو سفيان ينادى بأعلى صوته « يوم بيوم بدر والموعد العام
المقبل ! » وأخذ المسلمين شيء من الضعف ، وكاد يدب في نفوسهم اليأس لولا
حكمة الرسول وحسن سياسته ، فاقدم أبي عليه السلام أن يبقى على نار الهزيمة لحظة
واحدة ، فسارع إلى مطاردة أعدائه في الغد من يوم أحد ، حتى إذا بلغ
حراء الأسد أوقد النار ثلاثة ليال متتابة ، حتى فت في عضد قريش ، ففجعت
بالآياح وآثرت الانسحاب ، فعاد المسلمون إلى المدينة وقد غزوا قريشاً فخشيت
بأسهم وانسحبت أمامهم ، وإنما هو يوم بيوم أحد ، أو أنها واحدة بواحدة
والحرب سجال .

ولا شك أن هذه السياسة هي الحكمة بعينها . فلو أن الرسول عليه السلام
قنع بهزيمة المسلمين يوم أحد ، لمبطلت روحهم المعنوية إلى القاع بعد أن بلغت
القمة أو كادت يوم بدر ، واسمت روح العدو سمواً يزيدهم قوة وبأساً ، ولكنه
صلى الله عليه وسلم رد للمسلمين كثيراً من هيبتهم بموقفه الأخير في غزوة حراء
الأسد ، فحفظ المسلمين قوة الروح وانتزع من نفوسهم عوامل اليأس .

ومثل هذا حدث بعد انسحاب المسلمين في مؤته ، فأن كان في هذا
الانسحاب المنظم مهارة وحذق ، فقد كان نوعاً من الهزيمة على كل حال ، ولم
يكن فيه شيء من النصر والظفر . ومن أجل ذلك أخذ المسلمون يعيبون على
خالد انسحابه قائلين « يافرار فررتهم في سبيل الله ! » فما كان من رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلا أن أرسل عمرو بن العاص على رأس جيش من المسلمين
إلى الشام . ولم يلبث أن أمده بمدد من الصحابة على رأسه أبو عبيدة الجراح ،

فكانت غزوة ذات السلاسل ، تلك الغزوة التي أعادت للمسلمين هيبتهم عند حدود الشام ، وردت لهم اعتبارهم .

وليس أدل على حرص الإسلام الخفيف على تقوية الروح المعنوية في نفوس المسلمين من هذه الآيات البينات التي كانت تنزل بين الحين والحين لتبث الحماسة وتثبت الأقدام ... وما ظنك بجيش من المؤمنين يسمع قول القوي العزيز : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » ثم ما ظنك بجيش يسمع هذا القول الكريم « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فتبثوا الذين آمنوا ، سأتقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » ان القلة الصابرة تغلب الكثرة الكافرة بإذن الله ...

وإن الله مع الذين آمنوا في حربهم ، يمدهم بملائكته ويرعاهم بتأييده ونصره وإنه سبحانه قد اتى في قلوب الذين كفروا الرعب ، فما يطيقون حرباً ولا قتالاً !!

هذه المعانى تجعل الضعيف قوياً ، والقليل كثيراً ، والهاالك مهلكاً ، واليائس مؤملاً . . . وانها لتدفع المسلمين إلى الجهاد دفعاً قوياً شديداً ، فتجعل النصر والظفر حقيقة واقعة لا خيلاً طائراً . فلا إخال جيشاً يتمثل هذه المعانى الا وكان النصر حليفه مهما بلغ من انقطة والضعف . ولقد آمن المسلمون بأثر القوة المعنوية في التعجيل بالنصر ولو كان العدو أكثر منهم عدداً وعدة . فكان عبد الله بن رواحه يخطب جنده يوم موته قائلاً قالته الخالدة : — « يا قوم ! والله ان التي تسكرهون لاتي خرجتم تطالبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به !! فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة . . . »

وخير ما كان يحمس المسلمين ويرفع من روحهم المعنوية تلكم البيعات التي التي كانت تسبق القتال في بعض الغزوات . فلقد كان عليه السلام يبايع المسلمين على ألا يفروا ، كما كان يبايعهم على الموت في سبيل الله في بعض الأحيان . فقد بعث في سنة الحديبية عثمان بن عفان ليفاوض قريشاً ويدعوهم إلى السلام ، ويؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ، إذ لم يقصد الرسول حرباً وإنما جاء ليعتمر . فلما عرض عليهم ذلك سأله أن يطوف بالبيت إن شاء ، ولكنه رفض حتى يطوف رسول الله والمسلمون معه . فأقسمت قريش لثمن محمداً عن مكة عامه هذا . وطال حبل الحديث حتى أوجس المسلمون خيفة ، وظنوا أن قريشاً إنما فعلت بعثمان شراً . وبينما هم كذلك إذ نبأ مقتل عثمان بطرق أذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيثور ويفور ، شأنه أمام كل غدر وخيانة ، لأنه لم يفعل برسل أعداء سوء ولا شراً ، بل ردهم مكرمين كما جاؤا . فكيف يردون كرمه هذا مكرراً وخداعاً ؟ !

لقد جاءه رسولا مسيلة يشهدان أن مسيلة رسول الله . وهذا كذب وافتراء على الله يأباه الرسول ، ولكنه كظم غيظه ، واسكن غضبه ، وقال للرجلين « لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » وقد كان هذا هديه في معاملة الرسل : يردهم آمنين مطمئنين ولو أغاظوا له القول فاسمعوه ما يكره . وهذا رسول الله عثمان لا يسىء إلى قريش ، ولكنه يقرط آذانها بأحاديث السلم فتراعى أبناء قتله إلى المسلمين . ولو صدقت هذه الشائعة لكانت كالطامة الكبرى على قريش . فقد غضب المسلمون لغضب الرسول . وكادت سيوفهم تقفز من غمادها عندما قال لهم « لا نبرح حتى نناجز القوم » وعند ما جمعهم فبايعهم على ألا يفروا حتى يستشهدوا . فقد بايعوه بقلوب مؤمها الإيمان ، ونفوس

تتوق إلى الموت في سبيل الله . حتي لقد كان الواحد منهم يبایعه مرتين أو ثلاثة مرات في أول القوم وأوسطهم وآخرهم كما فعل سلمة بن الأكوع . ولما تمت البيعة وضع الرسول إحدى يديه على الأخرى يريد أن يشرك عثمان في بيعة الرضوان كما قد شهدها . وكادت نيران الحرب تشتعل لولا أن جاء عثمان إلى رسول الله فعلم المسلمون أنه لم يقتل ، وفي هذه البيعة نزل قول الله تعالى : - (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً) فأى فوز لهم بعد إذ رضى عنهم ربهم وأرضاهم ، فآتاهم من فضله جزاء بما أخلصوا لله ورسوله ، فتبايعوا على نصره دينه .

ومن هذا التحمس الذى ملأ القوم نستطيع أن نلص أثر الرسول وبيعته في نفوس الجند وروحهم المعنوية .

القوة المَكَادِيَّة

ان من مزايا القرآن الكريم هذا الشمول الذي يجده القارئ في آياته ، وهذا الخلود الذي يلمسه بين كلماته . فهو يأتى بالكلمة الواحدة تحسبها أول الأمر كغيرها من الكلمات ، فإذا تقابعت العصور ، وتطور الناس من حل إلى حل ، وجدتها أوسع من هذه العصور ومن تلكم التطورات .

أنظر يا أخى إلى كلمة القوة في قوله تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أنظر كيف شملت ما عرفه الصحابة أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من سيف ورمح ودرع ، وأنظر كيف شملت ما نعرفه اليوم من طائرة ودبابة وقنبلة ذرية ، لتعلم ان القرآن خالد لا يقف عند عصر ، وإنما يشمل المصور كلها ويسع التطورات جميعاً .

وأنظر إلى كلمة « الرمي » في قول الرسول صلى الله عليه وسلم « ألا إن القوة الرمي » أنظر كيف يشمل الرمي بالسهم والنبال بالأمس ، وكيف يشمل الرمي بالتقابل اليوم ، تقذف بها الطائرة أو الدبابة أو الغواصة .

لقد لام الإسلام فكرة التطور كل الملائمة . فكنت نسمع أبا بكر رضى الله عنه يقول لخالد بن الوليد « إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذى يقاتلونك به : السهم للسهم والرمح للرمح والسيف للسيف » فإذا كان الناس يقاتلون في هذا العصر بالدبابة والطيارة ، فليس لنا أن نقاتلهم بالبندقية والسيارة . وإذا كانوا يزيدون بين الحين والحين من حجم الدبابة أو من سرعة الطيارة أو من قوة فتكهما ، فليس لنا أن نقاتلهم بطراز قديم أقل حجماً أو سرعة أو فتكاً . وإذا كانوا يعرفون القنبلة الذرية فليس لنا أن نتمادى عن معرفة أسرارها ، بل علينا

أن نيسر للعلماء سبل البحث والإنتاج حتى نعرف ما يعرفون ونبشكر ما لا يعرفون .
فلقد كان عليه السلام حريصاً على اتباع الوسائل الحربية التي يجهلها اعداؤه .
فما كاد سلمان الفارسي يعرض عليه فكرة الخندق يوم الأحزاب حتى سارع إلى
تنفيذها ، فكان يحفر بيده الكريمة مع أصحابه . والخندق إذ ذاك وسيلة
مبتكرة . . . انها مكيدة ما كانت العرب تكيدها كما قال أبو سفيان « وفي
ذلك أعظم دلالة على أن الممالك والدول التي لا تنسج على منوال مجاورها فيما
يتخذونه من الآلات الحربية ، والتراتب العسكرية ، توشك أن تكون غنيمة
لهم ولو بعد حين » ^(١) فالثابت أن فكرة الخندق خديعة فارسية نقلها سلمان
إلى المسلمين .

وانظريا أخى إلى الدعامة الأولى من دعائم البناء الحربى . . . أليست هى
الحديد الذى قال فيه تعالى (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) ؟ إن
الحديد الذى كانت تصنع منه الرماح بالأمس هو الحديد الذى تصنع منه اليوم
الدبابة والطيارة ، فما أجمل الخلود فى كلمات القرآن . . . وما أجمل الخلود
فى معانيه ؟ .

ان فى الأمر باعداد العدة لحكمة بالغة ، فإن من الناس من يظن أن
الإيمان بالله دون اعداد العدة كفىل بالنصر ، وهذه هى الشعوذة التي لا تريدها .
فاعداد العدة هو الأخذ بأسباب النصر ، والأخذ بالأسباب من تمام التوكل .
وهل يقعد هؤلاء عن طلب الرزق فى الدنيا ، وينظرون اتطرهم السماء ذهباً
ونفضة ، أم تخطرهم سخطاً من الله ؟ ! .

لقد حرصت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم على إعداد العدة كل الحرص ، فكان عليه السلام يرسل البعثات العلمية لتعلم الصناعات الحربية . فقد جاء في طبقات ابن سعد ان عروه بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يحضرا حصار الطائف ، إذ كانا بجرح يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات . ولقد كان المنجنيق والدبابة أحدث وسائل القتال أيام رسول الله وأكثرها ندرة ومن أجل ذلك كان استعمالهما يحتاج إلى مران حربي وحذق فني لا يأتي بغير ارسال البعثات العلمية .

وليس أدل على نضج فكرة التسليح واعداد القوى الحربية من انهيار الدول الضعيفة أمام جحافل الألمان في الحرب العالمية الثانية . فلو أن هذه الدول قد أعدت مثل ما أعد الألمان من قوى ، لما سمعنا عن انهيار فرنسا أو تسليم الجيش البلجيكي أو الهولندي مثلاً ، ولما سمعنا قول بيتان : - « اننا في قلة من الجنود ، وقلة من الأسلحة ؛ ولذلك انهزمنا » .

وليس أدل على نضج هذه الفكرة أيضاً من هزيمة الألمان في روسيا . فلو أن الروس استشعروا برد الراحة ، فأراحوا أنفسهم من عناء الجهد كما فعل الفرنسيون ، لخضعت بلادهم للألمان كما خضعت فرنسا ، ولكنهم لم يغفلوا عن أسلحتهم وعدتهم ، فمضوا في سياسة التسليح ما وسعهم المضي ، حتى إذا هاجمهم الألمان لم نسمع عن انهيار مفاجيء أو استسلام ذليل ، بل سمعنا كيف تأرت « ستالينجراد » فطردت الألمان شر طردة ، وكيف توالى جهود الروس بعد ذلك حتى حفظوا لبلادهم حريتها وكرامتها .

وخير ما نرويه في هذا المقام ما كتبه المجلة الأوربية « بارى سوار » عن تسليح سويسرا قبل الحرب العالمية الثانية : - « لقد نشطت سويسرا في تنظيم جيشها وحشد قواها وتعزيز جبهتها وزيادة مدة التدريب العسكري بين أبنائها منذ سنة

١٩٣٦ ، وإذا كانت لم تذكر فيما مضى في إقامة المصانع الحربية ، فقد أصبح لديها الآن مئات من المصانع الحربية الكبيرة المعدة لهذا الغرض في أنحاءها المختلفة . وقد أقيمت استحكامات عظيمة على طول خط الرين وبالقرب من الجهة الألمانية وتعد سويسرا الآن برنامجاً حربياً حافلاً لحمايتها من الطواريء المفاجئة ، ولكي تصل إلى هذه الغاية قررت سحب ٢٥ مليوناً أخرى من المال الاحتياطي للاستمرار في عمليات التحصين والتسلح » ثم تعقب المجلة على هذا بقولها « فسويسرا لن تفقد استقلالها ، وإن تموت أبداً . وإذا كان الشعب السويسري لم يكن في تاريخه من الشعوب المتعطشة للحروب فليس هو كذلك بالشعب الذي يغتر بالسلام ! »

وهذه المجلة الأخيرة هي التي تهمننا ، فما كانت سويسرا أو غير سويسرا من دول أوروبا المسيحية لتصل إلى فهم حقيقة السلام والعمل لها كما فهمها الإسلام . ولقد قدمنا القول عن حروب الرسول صلى الله عليه وسلم وبيننا أنها كانت رداً للمدوان أو دفاعاً عن حرية العقيدة وتأميناً للدعوة إلى الله ، فإذا قيل كيف يدعو الإسلام إلى السلام ويأمر بالتسلح وإعداد العدة ، قلنا مثل ما قالته المجلة الأوروبية عن سويسرا « إن الإسلام وإن كان دين السلام ، فإنه لا يأمن أعداءه في فترة السلام » .

أن نزع السلاح أو تخفيضه فكرة جالت بخاطر طلاب السلام في هذا العصر ولقد دفعهم إيمانهم بنضج هذه الفكرة إلى أن يضمونها ميثاق هيئة الأمم ، فنصت المادة الثامنة على « أن صوت السلام يقضى بتخفيض تسليح الدول إلى أدنى درجة تتفق مع سلامة الوطن والتسكن من الاشتراك في تنفيذ الالتزامات الدولية ، وأن على المجلس أن يضع خطط هذا التخفيض بعد مراعاة الموقع الجغرافي والظروف الخاصة بكل دولة ، ثم يرسل هذه الخطط إلى الحكومات

المختلفة لمحصها وتنفيذها ، على أن تخضع هذه للتطور الطبعى ، فتعدل مرة كل عشر سنوات . وعلى الدول الاعضاء فى عصبة الأمم أن تتبادل كافة المعلومات الصريحة عن نظام تسليحها وبرامج قواتها البرية والبحرية والجوية ، وعن حالة الصناعات التى تفيد الأغراض الحربية » ثم نصت المادة التاسعة على تأسيس لجنة دائمة ترشد المجلس عن كافة المسائل الحربية والتى تتعلق منها بتنفيذ المادتين الأولى والثامنة خاصة . ولا شك أن هناك عيوباً كثيرة لنظرية نزع السلاح أو تخفيضه .

فهما حاولت العصبة فإنها لن تستطيع أن تضع يدها على التسليح المستمر فقد تستطيع الدولة أن تخفى بعض أنظمتها الحربية تحت ستار الألعاب الرياضية ، أو تخفى ميزانيتها الحربية بوضعها فى غير موضعها . ثم إن كثيراً من الدول ترفض مراقبة اللجنة التى أشارت إليها المادة التاسعة من ميثاق عصبة الأمم وتعدّ عملها هذا تدخلاً فى شئونها الداخلية كما يقول الكونت شالويأ رئيس مندوبى الوفد الإيطالى لدى عصبة الأمم ثم أن تخفيض التسليح إلى حد يتفق مع سلامة الوطن كما ينص الميثاق ، فيه تعارض ظاهر كما يقول فوشيل ، إذ أن سلامة الوطن تقتضى تجنيد جميع أبنائه والمضى فى سياسة التسليح الحربى إلى أبعد حد . فضلاً عن أن اتخاذ الظروف الخاصة بكل دولة أساساً لتحديد ما يلزمها من السلاح أمراً يسهل تحقيقه من الناحية العملية ، فكثيراً ما تبدو الدولة أخطار لا تتوقعها . ثم إن الدول التى غلبت على أمرها وجردت من أسلحتها فى معاهدة فرساي ، لن يهدأ لها بال حتى تنزع الدول أسلحتها مثل ما نزعنا ، أو تجاريهم فى التسليح الحربى . وفى ذلك يقول الجنرال ولهم جروزر وزير الدفاع الألمانى الذى عاصر العصبة : — « أن لألمانيا عين الحق الذى لغيرها من الدول سواء أكان باعتبار تأمين حدودها أو مطابقتها بنزع السلاح . وفى سنة ١٩١٩ أكدت لها الدول أنها ستقتدى بها

قريباً في نزع سلاحها . ولا يخفى أن ألمانيا عضو في عصبة الأمم . والمادة الثامنة من ميثاق العصبة تنص على الوعد بتأمين حدود جميع الدول التي هي عضو في العصبة . ولذلك سيكون غرض ألمانيا في مؤتمر نزع السلاح القادم ، الحصول على الضمانات يجعل الدول الأخرى تنزع سلاحها كما أرغمت ألمانيا على ذلك . فلا يباح لتلك الدول ما هو محرم على ألمانيا »

ومن أجل هذه العيوب الكثيرة أخفق طلاب السلام في تحقيق غايتهم أو قل أخفقت الفكرة في الوصول بهم إلى بغيتهم .

أن فكرة نزع السلاح أو تخفيضه لا تؤدي إلى السلام أبداً ، فالذي يحارب بدابتين ، يستطيع أن يحارب بدبابة واحدة . والذي لا يملك سلاحاً ، يستطيع أن يحارب بيده . وإنما الذي يؤدي إلى السلام هو إشاعة فكرة الحب والود والأخاء بين بني الإنسان ، وهذه هي المبادئ التي جاء بها الإسلام الخفيف . فهو لا يكتفئ لطائفة من الناس بغضاً أو عداً إلا إذا عادته وانتمرت به إنه يدعو إلى التعارف بين الأمم والشعوب ، فينادي في الناس ببناء الله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » وهل يقوم الحب والود والأخاء بغير التعارف ، وهو أساس الحب والود ودعاة الأخاء ؟

إن الإسلام يدعو إلى السلام بين الناس ، فما يكاد أعداؤه يسألونه الصلح حتى يجد بين دستوره الحكيم هذه الآية السكرينة « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

أن الإسلام لا يفكر في الاعتداء على مسلم أبداً ، وكيف يفكر والله يقول « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

أقسم لو أن هذه المبادئ سادت بين أمم العالم أجمع لما سمعنا عن حروب مروعة أو غير مروعة ، وأعاش العالم في سلام ووثام .

فتحقيق فكرة السلام لا يكون بنزع السلاح أو تخفيضه ، وإنما يكون بإشاعة فكرته بين الناس ، ومن أجل ذلك قال المستر ستودا مندوب اليابان لدى عصبة الأمم « إن مسألة نزع السلاح معقدة جداً وليس من السهل حلها ولا يجوز مطالبة أية دولة بنزع سلاحها ما لم تضمن سلامتها . وخير ضمان هو تربية الجنس البشرى على صفات ومبادئ ليست فيه الآن » .

ولقد ظهرت في أفق السياسة العالمية جماعة من المصلحين آمنوا بأثر التربية في إشاعة السلام العام . فتعرض بعضهم لهذه الفكرة في مؤتمر المعهد الدولي ومؤتمر التربية العالمي اللذين انعقدا في جنيف بسويسرا سنة ١٩٢٩ . ونادوا بأن تمحو الدول من كتب الطلاب ما يرمي إلى التفرقة بين الأمم ، أو يخالف مبادئ الصفاء والوثام وحب الإنسانية . كما قامت جماعة اكسفورد في أمريكا داعية إلى ما سمت « التسليح الأدبي » فاخذت تدعو إلى « الطهارة المطلقة ، والأمانة المطلقة ، والغيرة المطلقة ، والحب المطلق » .

« ومهما يكن من شيء فإن دعاء السلام — كما يقول الدكتور بقطر — قد جلبوا على العالم الكارثة التي تراها تمثل على المسرح العالمي اليوم . فخرقات السلام هذه ظلت تبث في النفوس الاطمئنان في البلدان الديمقراطية في الوقت الذي كانت فيه الدول الدكتاتورية تضرع نار الروح الحربية في نفوس ابنائها » اهـ ومن هنا يبدو لنا نضج نظرية السلام في الإسلام ، فهي تقوم على دعائتين

اثنتين : —

(أولهما) إشاعة المبادئ الإنسانية التي يدعو إليها الإسلام .

(ثانيهما) اعداد القوة الحربية .

وإنَّ السر في نضج النظرية الإسلامية يرجع إلى الجمع بين الدعامين حتى تتحقق الدعامة الأولى . فليس من الحكمة أن نكف عن اعداد العدة متى بدأنا في الدعوة إلى مبادئ السلام فندعوا إلى ترع السلاح أو تخفيضه قبل أن ننزع من قلوب الناس الاحقاد .

وليس بنزع السلاح بأس متى شاع بين الناس حب السلام على أن يكون هناك جيش دولي يحفظ السلام ويؤدب الخارجين عليه ، فلست أشك في أن التسلح يثقل الدول بنفقات باهظة لو انفقتها في اطعام الفقير وشفاء المريض وكساء العارى وتعليم الجاهل ، واصلاح المجتمع في شتى نواحيه ، لكان خيراً لها .

وليس لنا أن نفعل الحديث عن أسلحة المسلمين في عهد النبوة وقد تحدثنا عن القوة المادية . فلقد كان القوم يتخذون للحرب عدتها ، فيحتمون بالدرع وإيترسون بالترس ، ويلبسون الخوذة ، ويضربون بالسيف ، ويرمون بالقوس ويحملون الحربة والرمح ، ويركبون الفرس والبعير ، وكانت لهم اسلحة أخرى قد لا يصدق القارىء أنهم عرفوها منذ مئات السنين ، فسبقوا المخترعين المحدثين إليها . فقد كانوا يعرفون الضبور - وهو صندوق من خشب غطاؤه الجلد - يكمنون في جوفه فلا تصل إليهم حراب العدو ، ولا تعوق مسيرهم فيقدمون عليه بقذف النبال ورمى الأفواس ، وهم في حمى من أذاه وأمن من قذائفه ، وكان لهم سلاح آخر أشبه بالضبور ، يحتمون بداخله فينقبون الجدران ويقتحمون الحصون ويهزمون الأعداء .

وهذه الأسلحة هي صورة مصغرة لما نعرفه اليوم بالديابة ، يحتمى الجند بحديدتها ، ويطلقون نيرانها ، فيدكون الحصون ، وينسفون الدور ، ويقتلون العدو

وقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم المنجنيق يوم الطائف ، فقاتل به أهلها لأول مرة ، وإن أردنا وصفاً دقيقاً لحرب استعمل فيها المنجنيق إلى جانب الدبابة فلنقرأ ماجاء في السيرة لابن هشام عن معركة الطائف بين رسول الله وثقيف : « ورماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنجنيق حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابه ، ثم زحفوا إلى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد عمدة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعتاب ثقيف » وإذا كان المنجنيق فيما نقل صاحب التراتيب الإدارية عن الخفاجي « آتة لرمي العدو بحجارة كبيرة بأن يشد سوار مرتفعة جداً من الخشب يوضع عليها ما يراد رميه ثم تضرب سارية توصله لكان بعيد جداً ^(١) » كانت هي الصورة المصغرة للدافع الضخمة التي يستعملها الجند في هذه الأيام عند ما يريدون اقتحام مدينة محصنة .

التدريب العسكري

وكانت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم تحت المسلمين على التدريب والمران الحربي ، فلقد خرج عليه السلام يوماً على نفر من أسلم ، فقال ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وإنما مع بنى فلان ، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال : ما لكم لا ترمون ؟ ! فقالوا كيف نرمي وأنت معهم ، فقال : ارموا وإنما معكم كلكم « ولقد قال عليه السلام » إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانعه المحتسب في عمله الخبير ، والرامي له ، والممد به ، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، كل هو باطل ليس من الله محمود إلا ثلاثة ، تأديب الرجل فرسه ، ومداعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه فإنما هي نعمة كفرها » .

وإلى هذه السياسة الحكيمة تنجح الحكومات في هذه الأيام ، إذ لا يقوم جيش قوم بغير المران الحربي ، وعلى قدر مران الجند يكون بلاؤهم في الحرب ، والقلة التي أجادت التدريب تغلب الكثرة التي يعوزها المران ، ومن أجل ذلك جعل عليه السلام الرمي بالقوس والنبل وغير ذلك من أداة القتال حقاً ، وجعل مادونها من اللهو باطلاً إلا ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، وتأديب الفرس يقابله اليوم المران بالطائرة والدبابة والغواصة والسيارة المصفحة ؛ فهي التي تقوم اليوم مقام الفرس في الزمن الماضي . وإن هذا المران الحربي قد عدّه الرسول الكريم نعمة من عند الله ، إذ به تقوى الأمم بقوة جيوشها ، وإن تركه بعد معرفته كفر بهذه النعمة ، فلم يكن عليه السلام يريد أن يرى مؤمناً ينسى فنون القتال أو يترك المران عليها يوماً ، كي يبقى طيلة حياته أهلاً للجهاد في سبيل الله ،

فلا يفقده الدين عند الحاجة ، وإنما يحده دائماً متى أرادته أشد ما يكون حدفاً
وأعظم ما يكون مراناً .

والرسول عليه السلام إذ يرمى مع ذلك النفر من أسلم وهو رئيس الحكومة
وسيد الأمة ، بل وهو النبي الذي اصطفاه الله ليبليغ رسالته ، إنما يحث المسلمين
على المran الحربي كل الحث ، ويكرّم هذا العمل كل التكريم ، كي يقبل عليه
المسلمون إقبال من يريد الشرف ويتنقى به العزة والكرامة .

التجنيّد للأجباري

أوجبت حكومة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين أن ينفروا للجهاد إذا استنفروهم الإمام ، ولم تعف من القتال إلا من يعجز عنه ، فلقد روى أن الله سبحانه لما نزل قوله الكريم « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون . . » جاء ابن أم مكتوم الأعشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت فأنزل الله على رسوله قوله « غير أولى الضرر » ومن أجل ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى غزواته « إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر » ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم يقصد الذين يتمنون الجهاد من أولى الضرر كابن أم مكتوم مثلاً ، أما الذين لا يحدثون أنفسهم منهم ، فأوائلك لا يؤتون ثواب الذين حبسهم العذر ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .

ولقد عدّ الله سبحانه الذين يعفون من الجهاد في كتابه الكريم فقال : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله » والذين لا يجدون ما ينفقون هم الذين لا يجدون ما يعينهم على القتال في سبيل الله من دابة يركبونها أو سلاح يجاهدون به العدو ، ولقد حدث في غزوة تبوك أن قدم نفر من هؤلاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يحملهم معه ، فاعتذر إذ لا يجد ما يحملهم عليه ، فتولوا وقد أخذهم البكاء ، وفاضت أعينهم بالدمع إذ لم يشرفوا بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومثل هؤلاء كمثل ابن أم مكتوم الأعشى وغيره من أولى الضرر . فكل الفريقين يؤدّ من كل قلبه لو يسرت له سبل الجهاد في سبيل الله ، ولكن

ضعفاً في الجسم أو ضيقاً في ذات اليد يحول بينه وبين ما يريد ، فتأبى الشريعة الغراء إلا أن تقف منهم موقفاً رحيماً كريماً ، فتعفيهم من القتال إلا أن يغنيهم الله من فضله مالا ، أو صحة وقوة ، ثم تكتب لهم ثواب المجاهدين وفضلهم ، فيقول الرسول الكريم « إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر » وصدق رسول الله . . . فما يسلك المجاهدون شعباً ولا وادياً إلا ويتمنى الذين حبسهم العذر أن يجدوا فائضاً من مال ، أو بسطة في جسم ، أو شفاء من مرض ، حتى يلحقوا بإخوانهم أشد ما يكونون فرحاً وسروراً ، وأكثر ما يكونون بطولة واستبسالاً . . . إنهم إذن مع المجاهدين بأرواحهم وقلوبهم ، ولو قدروا لكانوا معهم بالجسم والروح معاً ، فلا أقل من أن يحزيهم الله جزاء المجاهدين ، وينجيهم من عذاب القاعدين .

وثمة فريق آخر من الناس أباحت لهم حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم التخلف عن الجهاد . وهؤلاء هم الأبناء الذين لا يجد آباؤهم غيرهم يبرهم ويرعاهم ويحسن إليهم في ضعفهم وشيخوختهم . فلقد جاء رجل من اليمن ليجاهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي : هل لك أحد باليمن ؟ قال أبواى فقال : أذن لك ؟ قال لا . قال ارجع إليهما فاستأذنهما ، فإن أذن لك فجاهد وإلا فبرهما وروى أن رجلاً جاء إليه صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال عليه السلام : ألك والدان ؟ قال الرجل : نعم . قال : فقيهما فجاهد « أى أحسن إليهما وبرهما فذلك باب من أبواب الجهاد لا يقل شأنًا عن جهاد الأعداء في ميدان القتال . ولست أشك في أن هذين الرجلين كانا وحيدى أبويهما ، فإتما أمرهما الرسول صلى الله عليه وسلم باستئذان الوالدين خشية ألا يجد الوالدان من يرعاهما . ومعنى ذلك أن ليس لوالدى الرجلين غيرهما ، وإلا لوجدا من يبرهما ، ولما أعفى الرسول الرجلين من جهاد الأعداء .

والذي يقرأ آية المعافاة من الجندية التي سجلناها آنف ، يعلم أن فكرة التجنيد الإجبارى فكرة إسلامية خالصة . فالإسلام لا يعنى من الذكور أحداً غير ما قدمنا . ومن أجل ذلك يقول الشيخ محمود شلتوت « ولا ير القرآن أن منها - يقصد المعافاة من الجندية - حمل الشهادات العلمية ولا الالتحاق إلى الجامعات ولا حفظ القرآن الكريم ولا دفع بدل نقدى ولا البنوة لحاكم كبير أو صغر مما عهدناه في عصور الضعف والاحلال ، بل كان العمل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والمصور التالية له على عكس هذا وما كان التفكير في جمع القرآن إلا مخافة أن يذهب بذهاب القرآن الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة في حرب اليمامة . وكان إقدامهم وجراتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً في أن يستمر القتل فيهم » اهـ . ولقد كان عليه السلام يعد التحلف عن الجهاد أو التولى يوم الزحف بغير عذر كبيرة من الكبائر الممساكة . فلقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يا رسول الله وما هي ؟ قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » فانظر أى كبيرة يكون التولى يوم الزحف وقد قرنه الرسول صلى الله عليه وسلم بالشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق ! وكيف لا يقرن بهاتين الكبيرتين وإن فيه للمزيمة المحققة والخسران المبين . فما من جيش يتولى عنه جنوده إلا ويضع ما يدافع عنه من دين أو وطن ، دون أن يريق عدوه قطرة من دم أو يبذل شيئاً من جهده . ومن أجل ذلك حض القرآن الكريم على الثبات عند اللقاء ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » كما حرم الفرار عند الزحف فقال : « يا أيها الذين آمنوا

إذا أقيم الدين كفروا زحفاً ، فلا تولوهم الأدار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »
ولقد حدث أن تحامت طائفة من المسلمين عن القتال يوم تبوك ، فلما انتهى
اليوم جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون فقبل منهم علانيتهم
وبأبعضهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، وكانوا بضعة وثمة ثين رجلاً . وجاءه
كعب بن مالك حتى جلس بين يديه وكان ممن تحلف ، فقال له ما خلقتك ؟ !
ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قال « بلى والله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا
لأريت أن سأخرج من سخطه بعذر واقد أعطيت جدلاً ولا كبراً والله لقد علمت
إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به على نبوشك أن يسخطك على
ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه ، إني لا أرجو فيه عفو الله عني . والله
ما كان لي من عذر . والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله
فيك » وفعل مثل فعله كعب رجلان آخران هما مرارة بن الربيع العامري وهلال
ابن أمية الوافقي : تخلفا عن القتال وجاءا إلى رسول الله صادقين تائبين ، فقالا له
مثل الذي قال كعب ، وقال لهما مثل الذي قاله لكعب . وهؤلاء الثلاثة قاطعهم
رسول الله والمؤمنون ، وأمرهم عليه السلام ألا يقربوا أزواجهم حتى يقضى الله
فيهم أمره . فظفوا كذلك خمسين يوماً لا يكلمهم أحد ، ولا يكلمون أحداً ،
ولا يقربون أزواجهم ، حتى تاب الله عليهم فنزل قوله الكريم « لقد تاب الله
على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد
يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم روف رحيم . وعلى الثلاثة
الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم
وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب

الرحيم » وإذ ذاك استنار وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لكانه البدر ليلة تمامه ، وكانوا يجدون ذلك منه إذا سره أمر ، فقال كعب « إن من توبى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال عليه السلام : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، فقال فإني أمسك سهمى الذى بخير .

وروى عن ابن عباس أن سبعة ممن تخلفوا عن المسلمين فى تبوك أوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد اعترافاً منهم بالذنب ، وإقراراً بالخطيئة ، وتكفيراً وتوبة ، فر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأهم قال من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري ؟ قالوا هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله وأوثقوا أنفسهم حتى يطلقهم النبي صلى الله عليه وسلم ويعذرهم . فقال عليه السلام وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذى يطلقهم . رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ! ! فأزل الله عز وجل قوله « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إنه هو التواب الرحيم » فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم فجاؤوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، فأخذها عليه السلام لما أمره الله فقال « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

ومن هذا الذى قدمنا يتبين لنا أن التخلف عن الزحف كبيرة مهلكة ، كانت تغضب الرسول أشد الغضب حتى لقد قاطع أصحابها وحرم عليهم أزواجهم ، وقاطعهم المؤمنون فأشعروهم بالذلة والهوان ، حتى لقد قعد مرارة وهلال فى بيتيهما ببيكيان ، أما كعب فكان يطوف الأسواق فلا يكلمه أحد ، ويحجى ابن عمه وأقرب الناس إليه فلا يرد تحيته ، ويأتى رسول الله فى المسجد فيسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، ثم يسأل نفسه أحرك رسول الله صلى الله

عليه وسلم شفّيته ليرد عليه السلام أم لا ؟ ثم يصلى قريباً منه فيسارقه النظر ، فإذا أقبل على صلاته أقبل إليه الرسول ، وإذا التفت نحوه أعرض عنه . ثم إنه صلى الله عليه وسلم أبى أن يطلق الذين أوثقوا أنفسهم بالسوارى حتى يكون الله هو الذى يطلقهم ، وقال غاضباً « رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين !! » والذى استنبطه مما قدمت أن المتخلف عن الغزو ممن لا عذر لهم ، يعاقب بالغرامة والحبس ، إذا صدق أولى الأمر وعلموا فيه خيراً .

فأما الغرامة فصـدقة تطهرهم وتركهم وتكفر عن سيئاتهم ، وتنفض عنهم عار الفرار من سبيل الله . وهى عقوبة واجبة وجوب الفرائض فيما أرى ، إذ جاء الأمر بها صريحاً واضحاً « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

وأما الحبس فأصله من سنة رسول الله التقرير ، إذ أقر الذين أوثقوا أنفسهم بالسوارى على ما فعلوا ، مما يؤكد جواز حبس المتخلف إذا رأى الإمام ذلك . فالسارية كانت وسيلة للحبس فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن السجن بمعناه العصرى معروفاً يوم ذاك ، حتى أن رجلاً من بنى حنيفة أريد حبسه ، وكانت خيول المسلمين التى بعثها الرسول إلى نجد قد جاءت به ، فربط إلى سارية من سوارى المسجد .

وأكبر ظنى أن الله سبحانه لو قد أراد ألا يشرع للناس حبس المتخلفين عن القتال بغير عذر ، لعجل من نزول آيات العفو والتوبة قبل أن يوثق هؤلاء السبعة أنفسهم ، أو لأوحى إلى رسوله فأطلقهم من أول الأمر .

ثم إن هجر الرسول والمؤمنين لسكران ومرارة وهلال ، والحيلولة بينهم وبين أزواجهم ، إنما هو الحبس بعينه فيما أرى . هو الحبس كما كان يعرف الناس أيام رسول الله ، وقبل أن يعرفوا السجن التى تجمع المذنبين فى صعيد واحد ، فتحول بينهم وبين الناس .

فهجر المذنب أو حبسه شيثان متقاربان إن لم يكونا شيئاً واحداً .
فالذى يحبس لا يكلم الناس ولا يكلمه الناس ولا يقرب زوجه .
والذى يهجر لا يكلم الناس ولا يكلمه الناس ولا يقرب زوجه .
والذى يهجر تضيق عليه الأرض بما رحبت حتى يسكنه في السجن تماماً
حتى لقد قال كعب يصف حاله وحال صاحبيه لما هجرهم المسلمون : « فاجتنبنا
الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى الأرض فما هى باتى أعرف ! »
ثم إن هذا المهجر هو الذى دفع مرارة وهلالاً إلى بيتهما ، أى أن السجن
المعنوى هو الذى دفعهم إلى السجن الحقيقى . والقصد من هذا المهجر أو الحبس
هو التأديب والتهذيب ، الذى أراده الله لعباده الخالصين ، الذين إذا فعلوا فاحشة
أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا الذنوبهم ، واعترفوا بخطاياهم ، وأقبلوا على
الله تائبين منيبين .

فأما الذين لم يعترفوا بذنوبهم ، فجاءوا الرسول يعتذرون بالكذب والباطل ،
فهؤلاء هم المنافقون الذين لم يلقوا هجراً ولا عتاباً ، ولو علم الله فيها خيراً لعجل لهم
العتاب فى الدنيا كما عجل للثلاثة الذين صدقوا وأكفهم أهل النفاق والخيانة
« لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ، ولأوضعوكم خلالكم ينفونكم الفتنة وفيكم
سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ،
حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » فحكومتهم الرسول صلى الله عليه وسلم
لم تكن تريد أن يضم جشها أهل النفاق والخيانة والفتنة والخذلان ، بل كانت
تحرص كل الحرص على أن تطهره منهم تطهيراً . ومن أجل ذلك كان يقال
للرسول صلى الله عليه وسلم : إن فلانا قد تخلف ، فيقول « دعوه فإن يك فيه خير
فسيصلحه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » ...

النساء والحرب

ينبغي للباحث في هذا الموضوع أن يفرق بين عصرين اثنين : العصر الذي سبق فرض الحجاب ، والعصر الذي تلاه ، إذ كانت فرض الحجاب في السنة الخامسة بداية لتطور شامل في شتى نواحي المجتمع الإسلامي . وينبغي له أيضاً ألا يتخذ ظاهر الأحاديث الشريفة حجة فيما يصدر من حكم أو ينادى به من رأى . فإن فهم الظروف التي أحاطت بكل حديث ، كفهم الحوادث التي نزلت من أجلها الآيات ، يعين على البحث والدرس ، ويغير كثيراً من المعنى الظاهري . ومتى حكمنا حكماً يخضع للمبادئ العامة والقواعد الكلية التي جاء بها الإسلام فإننا لا نخطئ ، ولو كان هذا الحكم متعارضاً مع القواعد الفرعية والأحكام الجزئية التي تسكينها ظروف البيئة ، وطبيعة العصر ، فإن ذلك هو الاجتهاد الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل للمخطئ فيه أجراً ، وللمصيب أجرين .

* * *

كان النساء يخرجن للقتال في العصر الأول ، وكان عليه السلام يُقرهن ولا ينكر عليهن . فلقد حدث ابن هشام أن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية قالت :- خرجت أول النهار - تقصد يوم أحد - وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء وفيه ماء فانهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلى « فقالت لها امرأة كانت تستمع لها وتنظر إلى جرح من جراحها أجوف له غور « من أصابك بهذا ياخالة ؟ » قالت « ابن قشة - أقناه الله - لما ولى الناس عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول : دلوني على محمد فلا بحوت إن مجا . فاعتضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضر بني هذه الضربة ولكن ، فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان » واقد روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، واقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سلمة ، وإنيهما لمشموتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانها في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملأنهما ، ثم يجيئان فتفرغانها في أفواه القوم » .

ولما جرح الرسول صلى الله عليه وسلم في يوم أحد ، أخذت فاطمة رضى الله عنها قطعة من الحصير ووضعتها على جرحه ، فاستمسك الدم بعد أن كان الماء لا يزيده إلا كثرة .

وكان لاسرأة يقال لها ربيعة خيمة يوم الخندق ، فلما جرح سعد بن معاذ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجعلوه في خيمة ربيعة » .

وهذه الحوادث كلها كانت في العصر الأول كما قلت . فنحن إزاء بوعين من جهاد المرأة نذكرها وننظر أثر الحجاب فيهما أو مقدار التطور الذى أصابهما في العصر الثانى : —

(أولاً) القتال في صفوف الرجال ، كما فعلت نسيبة بنت كعب المازنية يوم

أحد ، عندما اعتضت طريق ابن قنثة بين جمع ممن ثبت مع رسول الله من الرجال . وهذا النوع من أنواع الجهاد لم نر له أثراً في العصر الثانى ، لأن طبيعة الإسلام في ذلك العصر تنسكرا اختلاط الجنسين ، ولو كان هذا الاختلاط في بيت الله ، حيث تتجبه القلوب إلى الله وتنسى مفاتن الدنيا ، فتقبل على الطاعة والعبادة خاشعة

خاضعة . ومن أجل ذلك لم يأذن عليه السلام باختلاط الجنسين في حلقات العلم التي كان يعقدها في المسجد بين الحين والحين ، بل كان يجعل للنساء يوماً لا يختلطن فيه رجل ، ولهذا يفتي الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه ، بأن المرأة إذا وقفت في صفوف الرجال تصلي ، بطلت صلاة من على يمينها ومن على شمالها ، ومن هو في خلفها . والذي أؤكد أنه الآن أن المرأة إذا خرجت إلى الميدان بنية القتال كان اختلاطها بالرجال أمراً مؤكداً ... إن لم يكن بالجيش المسلم ، فبمن تقايل من جيش العدو . ومن أجل ذلك كان النساء إذا استأذن الرسول صلى الله عليه وسلم في الجهاد سارعن يؤكدن أنهن لا يبعين قتلاً ، وإنما تمرضاً وسقاية ...

فالإسلام لا يأذن للمرأة في القتال ، إلا إذا هاجمها العدو في دارها أو حصنها كما فعلت صفية بنت عبد المطلب يوم حارب الرسول بنى قريظة ، فلقد تحصنت يومذاك مع حسان بن ثابت ، وجمع من النساء والصبيان . ولم يكن هناك من يدفع عنهم العدو إذا هاجمهم لأن المسلمين كانوا يحاربون ولا يستطيعون الرجوع إلى أهل الحصن إذا دهمهم أحد ، وبينما هم كذلك ، إذا يهودي يطوف حول الحصن فتظن صفية به شراً ، وتقوم إلى حسان تدعوه إلى قتله ، واسكن حسان يتردد بعض الشيء ، فتأخذ هي عموداً ، وتنزل من الحصن ، وتضرب اليهودي بالعمود فتقتله . وهذا الجهاد لا ينهي عنه الإسلام ، بل يأمر المرأة به ما لم تجد رجلاً يدفع عنها العدو ، وخير لها أن تموت في قتال العدو من أن تستسلم له . وليس في هذا الجهاد خروج على طبيعة الإسلام في فرض الحجاب والفرقة بين الجنسين ، إذ أن المرأة إن تخرج إلى الميدان ، وإنما تقايل عند دارها أو حصنها .

(ثانياً) تمريض الجرحى وخدمة الجند ، كما فعلت عائشة بنت أبي بكر وأم

سودة يوم أحد أيضاً . وقد بقي هذا الجهاد في العصر الثاني . وإن كان الحجاب قد

أحاطه بشيء من الآداب وحد منه بما يلائم طبيعته . فلم نعد نسمع عن طواف النساء بين صفوف الجند ، وهن مشمرات يرى الناظر إليهن خدم سوقهن كما حدث أنس عن عائشة وأم سلمة . ولعل خيمة رفيدة : يوم الخندق بداية التطور أو سلم الانتقال . فعزوة الخندق كانت في آخر العصر الأول أو بين العصرين . وتأكيذاً للتطور الجديد أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لأُم سنان الإسلامية بالخروج معه إلى خيبر ، على أن تكون مع أم سلمة تغرز السقاء وتداوى الجرحى وتعد الطعام ، وأم سلمة كانت يوم ذاك في قبة ضربت لها ، فهي لا ترى رجلاً ولا يراها رجل .

وأما ما قيل من أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر ست نسوة كن قد خرجن يداوين ويمرضن يوم خيبر بالانصراف ، فإنما كان ذلك لخروجهن دون أذنه وبغير أمره ، ومن أجل ذلك قال لهن غاضباً « ما أخرجكن وبأمر من خرجتن » ولو قد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينفكر خروجهن لمرضى الجرحى ومداواة المرضى ، لما أذن لأُم سنان وصواحبها بالخروج فقال لها : « إن لك صواحب قد أذنت لهن . فكوني مع أم سلمة » وقد كان ذلك في خيبر بعد فرض الحجاب . وقد حدث يوم حنين أن جاءت كبشة القضاية تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج كي تداوى الجرحى والمرضى ، فنهاها قائلاً « لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ، ولكن إجلسى » والذين يقفون عند ظاهر الحديث يقولون مقالة ابن حجر ، إن نهى الرسول كبشة ناسخ لآذنه لأُم سنان . والواقع أننا لا نميل لهذا الرأي ، لأن خروج المرأة بحجة في خيمة خلف صفوف الجند ، لا ترى رجلاً ولا يراها رجل ، إلا من تداوى من الجرحى والمرضى ، لا يناق طبيعة الإسلام أو طبيعة العصر الذي فرض فيه الحجاب .

فلننظر إذن إلى الحديث الشريف نظرة أعمق ، ولنحط بالظروف التي قيل فيها ، قبل أن نرى رأياً أو نصدر حكماً .

إن المسلمين يوم حنين كانوا أكثر ما يكونون عدداً ، حتى لقد ظنوا أنهم لا يقابلون بعد يومهم ذاك من قلة ، ومن أجل ذلك دخلهم العجب ، وعاتبهم ربهم إذا عجبتهم كثرتهم ، فلم تغن عنهم شيئاً ! ولا شك في أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يرى أمامه هذا العدد العديد من الرجال فإنه لا يقبل امرأة ، إنما كان يقبل من قبل لقلة المؤمنين وكثرة العدد من قريش واليهود . فلم يكن بد من أن يلاقى العدو بأكثر عدد من الرجال . ولن يتيسر له ذلك إذا أعرض عن كل امرأة تأتيه لتكفي الرجال مئونة التمريض والمداواة والخدمة العامة فيفرغوا هم للقتال .

ولعل في قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لولا أن تكون سنة . . . » ما يبين لنا قصده الكريم . فلقد كان عليه السلام يخشى أن يكون خروج النساء طريقة متبعة وسنة مؤكدة . فلا يخرج جيش دون أن يصحب معه فرقة منهن ولو كان غنياً بالرجال . فأراد عليه السلام أن يشرع للجيش الخروج دون نساء كما شرع له من قبل الخروج بالنساء .

فالقاعدة العامة أو المبدأ السكلي في هذا المقام أن نهى النساء الحجاب ، وإن تمنع اختلاطهن بالرجال . فأما إن يخرجن للتمريض واعداد الطعام وما شابه ذلك أو لا يخرجن فتلك قاعدة فرعية تختلف باختلاف العصور والأحوال . فقد نجد في معركة نقصاً في رجالنا ، فلا تزيد النقص بأن نفرض على فريق منهم مداواة الجرحى واعداد الطعام . وإنما ندفع بهؤلاء إلى صفوف القتال ، ونأتي بالنساء من خلف الصفوف يمرضن ويداوين وقد تحلين بالحجاب ، وأعدت لهن

خيام أو مباني تليها السيارات أو الطائرات أو غير ذلك من وسائل الانقاذ التي تمكنهم من النجاة إذا اخترق العدو صفوف المقاتلين . وقد نجد في وقت آخر كثرة في الرجال ، فلا تأذن للنساء . ولن يحول قعودهن دون ان يفلن شرف الجهاد ، فلقد روى ان اسماء بنت يزيد جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : - بأبي أنت وأمي يا رسول الله إني وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل بعثك للرجال والنساء كافة فآمنا بك وبأهلك . انا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم حاملات أولادكم . وانكم معاشر الرجال فضلتُم بالجمع والجماعات وعبادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل ذلك كله الجهاد في سبيل الله عز وجل . وان أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم ، ورَبينا لكم أولادكم ، أفنشاركم في هذا الأجر والخير ؟ » فالتفت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال : هل سمعتم مسألة امرأة قط ، أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه ؟ قالوا يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى هذا . فقال عليه السلام لاسماء : أفهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء ان حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله »

ولقد رأينا النساء بعد حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم يشاركن في الجهاد بما يلائم طبيعتهن كما كن يشاركن حكومته . فلقد حدث الطبري أن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي قالت « شهدنا القادسية مع سعد - نقصد القائد ابن أبي وقاص - مع أزواجنا ، فلما اتانا ان قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا ، وأخذنا الهراوى ، ثم اتينا القتلى . فما كان من المسلمين سقينا ورفقنا ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نوايهم ذلك ونصرفهم به »

وهذا يؤكد ما قدمناه من جواز خروج المرأة للمريض والخدمة العامة عندما يشتد خطر المعارك كما اشتد يوم القادسية ، فتشتد الحاجة إلى جهود الرجال في صفوف القتال وإذا تأملنا قول أم كثير « فشدونا علينا ثيابنا » تبين لنا الحرص على الحجاب ، وقولها فلما انانا ان قد فرغ من الناس « ثم قولها » وتبعنا الصبيان « علمنا انهن قمن بعملهن بعد أن أنصرف الرجال من صفوف القتال ، فلم يكن معهن الا الصبيان ، ولم يكن يخالطن الرجال .

البحرية

كان عليه السلام بهم باقتفاء أخبار العدو ومعرفة أسرارهم واستطلاع خباياهم فكان يبعث العيون ليأتوه بخبرهم ، فقد أرسل عبد الله بن جحش سنة اثنين للهجرة في اثني عشر مهاجراً بعد أن دفع إليه كتاباً أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين . فلما مضى اليومان نظر عبد الله في كتاب رسول الله ، فإذا فيه « إذا نظرت إلى كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » كما أن الرسول عند ما علم بعير أبي سفيان تحمل خيرات قريش كلها إلى الشام أمر نفراً من المسلمين أن يخرجوا إليها لعل الله أن يجعلها لهم . فلما اقتربوا من الصفراء بعثوا بسيس بن عمرو وعدى بن الرعباء إلى بدر يستطلعان أخبار العير . وقد ذهب رجلان من المسلمين إلى بدر يستقيان ويتنظسان الأخبار . وبينما هما كذلك إذ بحارية تطالب أخرى بدين عليها ، فتجيبها صاحبتها أن سوف تعطيها الذي لها عند ما تأتي العير في الغد أو بعد الغد ، فتعمل لهم ، وتؤجر منهم . فيسرع الرجلان إلى رسول الله يخبرانه بيوم قدوم العير . ثم إن الجمع لما قارباً بدرأً وتسابقاً إلى الماء ، بعث الرسول علياً وسعداً والزبير إلى بدر يتجسسون . فجاءه بعبد بن قريش وهو قائم يصلي . فلما انتهى من صلاته سألهما عن مكان قريش . فقالا « وراء هذا الكتيب » ثم قال لهما « كم القوم ؟ » فقالا « لا علم لنا » فقال « كم ينحرون كل يوم ؟ » فقالا « يوماً عشراً ويوماً تسعاً » فقال صلى الله عليه وسلم « القوم ما بين تسعمائة والف » ثم قال لهما « فمن فيهم من اشرف قريش ؟ » قالوا

« عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحرث ، وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام ، وأميمة بن خاف ، ونبیه ومنبه إبن الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبدود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » .

وفي غزوة أحد بعث الرسول أنساً ومؤنساً ابني فضاله يلتزمان قريشاً . فعلما أنها قاربت المدينة ، واخبرا الرسول بذلك . وبعث من بعدهما الحباب بن المنذر فأنابه بخبرها . ولم يلبث أن خرج سلمة بن سلامة قرأى قريشاً تسرع بخيلها حتى لشكاد تدخل المدينة ، فرجع إلى القوم يحدثهم بما رأى .

وفي غزوة المريسيع عندما علم الرسول أن الحرث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق خرج في قومه ليحارب المسلمين ، ارسل بريدة بن الحصيب الأسلمي يتأكده الأمر . فلما لقي الحرث وعلم اخباره ، رجع إلى رسول الله يقص عليه ما سمع . فما كان من رسول الله إلا أن تدب المسلمين للقاء بني المصطلق .

وفي غزوة الخندق عندما علم الرسول أن قريظة قد نقضت عهدها وانضمت إلى حيي بن اخطب عدو الله ورسوله ارسل سعد بن معاذ وسعد بن عباد وعبد الله ابن رواحة وخوات بن جبير ليعلموا أمر قريظة ويروا أن كانت على عهدها مع رسول الله أم خرجت عليه . فلما سأل هؤلاء كعب بن أسد وقال لهم « لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد » انصرفوا إلى رسول الله يخبرونه .

وفي سنة ست من الهجرة قبل صلح الحديبية أو عهدها بعث الرسول عدة سرايا كان منها سرية عكاشة بن محصن الأزدي الذي خرج في أربعين رجلاً إلى الفجر . وقد أرسل هؤلاء الطلائع - جرياً على سنة رسول الله - فوجدوا من

دهم على ماشية أعدائهم فغنموا مائتي بعير ساقوها إلى المدينة . وعند ما خرج الرسول اعتمر - عمرة الحديبية - في ألف وبضع مئاة من أصحابه وبلغ ذا الحليفة ، بعث عيناً له يستطلع فلما اقترب الرسول من عسفان أتاه عينه فسأله عما جاء به من أخبار قريش فقال له الرجل « قد سمعت بمسيرك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم » وقبيل يوم حنين بعث عليه السلام عبد الله ابن أبي حذرد الأسلمي وأمره أن يدخل في صفوف عدوه فيقيم فيهم حتي يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق ابن أبي حذرد حتي دخل فيهم وسمع منهم ما أجمعوا عليه من حرب المسلمين ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر .

وقد كان المذاقون بالمدينة سماعين لقريش بمكة كما كانت قريش تحرص على استطلاع أخبار المسلمين كحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على استطلاع خبرها ، وإن كان حرصه - عليه السلام - وسيلة يدفع بها غائلة عدو أخرجه من داره وماله بغير الحق ، ثم أخذ يتربص به الدوائر ويبعث له بليل ، فأما حرص قريش فكان وسيلة تؤكد بها سياسة العدوان التي بدأتها بمكة ، ومن أجل ذلك كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم موقف حازم ازاء من يحس عليه .

فقد ثبت أنه قتل جاسوساً مشركاً . إلا أنه لم يقتل حاطباً بن أبي بلتعة بعد ان كاد يخبر قريشا بمسير رسول الله إليهم ، لأنه كان من أهل بدر . وقصة ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تجهز لفتح مكة ، سارع حاطب يكتب كتاباً يقول « من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم » وأرسل الكتاب مع امرأة ، فجعلته في قرون في رأسها . وإذ ذاك أوحى الله إلى رسوله بما فعل حاطب ، فأرسل عليه السلام

علياً والزبير وقال لهما انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ فان بها طعينة معها كتاب إلى قرش فلما بلغا المرأة أخذتا منها الكتاب وأتيا به رسول الله ، فاستدعى حاطباً وسأله الأمر فقال « لا تعجل علي يا رسول الله ، والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولا بدلت ، ولكنني كنت أمراً ملصقاً في قرش لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد . وليس لي فيهم قرابة يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي » فقال عمر بن الخطاب « دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله وقد نافق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : - « أنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فقال عمر وقد ترققت عيناه بالدموع « الله ورسوله أعلم »

وقد اجتهد الفقهاء في هذه القصة يريدون أن يستخرجوا منها حكماً على الجاسوس المسلم ، فاختلفوا في آرائهم . فقال فريق منهم بالعفو عنه لأن الرسول لم يعاقب حاطباً ، ولم يأمر بقتله . وقال فريق آخر بوجوب قتله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما نهى عن قتل حاطب لظروف خاصة لا تتوفر في غير عصر النبوة ، وهي شهود غزوة بدر الكبرى . ويرى مالك رحمه الله هذا الرأي . ويرى الشافعي وأحمد وأبو حنيفة الرأي الأول . ونحن أميل إلى رأي مالك رحمه الله في وجوب قتل الجاسوس المسلم ، إلا أن تكون له مثل سابقة حاطب في الإخلاص لله ورسوله . وإن كان هذا الإخلاص أمراً نادراً ، فإنه ليس بممتنع . ومن أجل ذلك نميل كل الميل إلى ما رآه ابن القيم من أن قتل الجاسوس راجع إلى رأي الإمام ، فإن رأى الإمام في قتله مصلحة للمسلمين قتله ، وإن كان بقاءه أصلح استبقاه .

وليس لنا أن نعيب نظام التجسس ، لأن التجسس وسيلة من وسائل الحرب كالخدعة تماماً . وهو ليس أقبح من الحرب التي هي أصله وسببه . وإذا كنا لا نعيب على الإسلام حروبه ، لأنه لا يبدأ بها . وإنما يضطر إليها دفاعاً عن حرية العقيدة أو إصلاحاً للبيعة وردعاً للمعتدين ، فليس لنا أن نعيب عليه أخذه بنظام التجسس ، الذي نعده ضرورة من ضرورات الحرب كما أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . فليس للمحارب أن يغفل أمر عدوه فلا ينظر ما يدبر له في الخفاء بل عليه أن يحذر الأعيبهم ويحبط مؤامراتهم ويأخذ نفسه بأسباب الحيلة والحرص . والجاسوس إذا تبع الدولة المعتدية غداً عمله نوعاً من الاعتداء والبدء بالحرب . فإذا كان تابعاً للدولة المعتدى عليها عد عمله نوعاً من الدفاع عن النفس ومن ثم يبين لنا أن عمل الجاسوس المسلم لم يكن كعمل الجاسوس المشترك .

والذي نعيبه في نظام التجسس عامة ما تلجأ إليه الدول في العصر الحديث من اقحام النساء فيه اقحاماً يضيع العرض ويذهب بالشرف ويهدر العفة والكرامة فكم زحرت قوائم الجاسوسية في الحرب العالمية الأولى بأسماء النسوة الساقطات اللاتي بعن العرض والشرف لقاء الجس واستطلاع الأخبار ، فراقصن القادة وصاحبن الجند واستدرجن في الحديث . ومع أن طريقتهم أصبحت مفتضحة بعد الحرب العالمية الأولى ، فلم يبق قائد أو جندي يثق في امرأة تسأله عن أخبار الجيش ، ولم يبق مسئول من رجال الجيش يحمل خطط هجومه في جيبه ، أو يترك الوثائق السرية في غرفته ، إلا أن الدول لم ترف في ذلك كله مبرراً للاستغناء عن جهود المرأة في حقل الجاسوسية ، فزحرت قوائم الجاسوسية في الحرب العالمية الثانية كما زحرت في الحرب العالمية الأولى بأسماء الساقطات من بائعات العرض والشرف . واشتهر منهن « غريتا كاين » في فنلندا و« هيلين دلبو » في الدنمارك

و « روث كوث » في بيرل هاربور . ولا عجب أن تكون هذه سياسة قوم لا يفهمون الشرف الإنساني ، فهم ينكثون العهد ، ويضحون بالعرض ، ولا تأخذهم بمن يحاربون من الناس رافة ولا رحمة . أى فرق هذا الذى نراه بين تعاليم الاسلام وبين أخلاق العالم في عصر العلم والمدنية !

العالم اليوم يضحى بالعرض من أجل الحرب !

والإسلام يحارب من أجل العرض !

فما أبعد الفرق ، ثم ما أبعد الفرق !

يرحم الله المعتصم يوم نادته امرأة مسلحة أذلها سيدها الرومى في ناحية من نواحي عمورية . فما كاد يبلغه نداؤها « وامعتصماه ! وامعتصماه ! » حتى أجابها « لبيك لبيك ! ثم لبيك لبيك ! » وسارع في اثني عشر فارس إلى عمورية فغزاها وإلى المرأة فحررها ، وإلى الرومى فأذله لها . وكان المنجمون يقولون إن عمورية لا تفتح حتى ينضح التين والعنب صيفاً ، فلم يسمع لقولهم ، وهاجمها ساعة بلغها شتاء ، فامتدحه أبو تمام قائلاً :

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفايح لاسود الصحائف في	متونهن جلاء الشك والريب
أبقت بنى الأصفر المراض كاسهم	صفر الوجود وجلت أوجه العرب
تسمون ألفاً كآساد الشرى نضجت	جلودهم قبل نضج التين والعنب !

الحرب خديعة

ولم تكن الحرب تخلو من دهاء وخدعة ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد بلداً أو هم أعداءه أنه يقصد غيره . ففي غزوة حنين كان يسأل عن طريق نجد ومياها وعمن بها من العدو ليشعر القوم أنه لا يريد حنيئاً . وهذه خطة طالما سمعناها عن قواد الحرب في هذا العصر فأثينا عليهم الثناء كله . وليست الحرب العظمى والحرب الأخيرة ببعيدتين عنا ، فكما كنا نسمع بالناورات الحربية من المدافع وقذف القنابل ، إلى إعداد العد وتعبئة الجند في ناحية من نواحي إنجلترا أو ألمانيا . وكما بعد قليل من التفكير نظن أن الحرب سوف توقد نيرانها في بلد ما تجاه تلك الناحية . كما كان العدو يلتقي معنا فيما نظن فيخدع كما خدعنا ، إذ لا يلبث أن يجد الحرب قد نشبت في غير هذا البلد الذي أعد العدة لحمايته فما نام الليل وما هدا النهار . وتكون النتيجة المنطقية لهذه الخطة الخادعة أن تفتح البلدة التي قصدت وخدع أصحابها فأوهموا أن أعداءهم يريدون غيرها من البلدان إذ لم يحصنوها مثل ما يحصنون غيرها ، بل ربما سحبوا قواهم التي بها إلى هذه البلدة التي يظنون أن العدو يريد لها لما يرون من مناورات في هذه الناحية التي تقع تجاهها . ونظرة واحدة إلى القادة المحدثين في هذا العصر ثم إلى قائد المسلمين في عصرهم الأول تكفي لتثبت أنهم أخذوا عنه بعض ما أدهشونا به ، أو أنه سبقهم إلى ما يظن بعض من جهل أنهم استحدثوه .

ولقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للنفر الذين نذبهم لقتل كعب بن الأشرف في أن يقولوا ما يشاؤون من كلام يخدعونه به ، فقد اشتد في إبذاء

رسول الله وأصحابه ، فكان يهجوم في أشعاره ويشبب بنسائهم ، وينقض ما عاهد الرسول عليه ، ويأتمر بقتله ، ويؤنب عليه كما فعل بعد غزوة بدر ، مما أغضب الرسول وجعله يقول « من لكعب بن أشرف فإنه قد آذى الله ورسوله » وما أن قالها حتى سارع محمد بن سلمة وعباد بن بشر وسليمان بن سلامة والحارث بن أوس وأبو عيسى بن حبر إلى كعب بن الأشرف . فلما جاؤه تقدم له أخوه من الرضائع سليمان فأظهر له المحرابة عن رسول الله وخروجه عليه وشكا إليه الجوع والفقر وسأله أن يبيعه وأصحابه طعاماً بعد أن يرهنوه أسلحتهم ، فقبل . وسارع سليمان إلى أصحابه يخبرهم ، فانتظروا كعباً حتى خرج إليهم من حصنه ، فقتلوه بسيوفهم وأقر الرسول مقتله . وقد عد بعض المستشرقين هذا الأمر عذراً وخيانة ! وهم بهذا الزور والبهتان إنما يكشفون عن حقدهم وغيظهم فما عرف الإسلام يوماً الغدر ولكنه عرف كيف يؤدب الغادر ، فإذا استقام كان بها ، وإلا فلا حياة له . وهذا رجل هجا وعاب ، ونقض وتآمر ، وغدر وخان ، ولا يستحي أبداً ! فإن أبقت عليه أمة ، ولم تقتص منه فسوف يجعل أهلها شيعاً ويميت في الأرض فساداً . وإن اجتثته كما تجتث الأشواك ، فسوف تحيا آمنة مطمئنة لا تحشى غدرأ ولا شرأ . فمثل كذل الشجرة الخبيثة التي لا تظل ولا تثمر وإنما تحوى بين أخشاب أغصانها الحيات والعقارب والفئران . فهي لا تنفع الناس ولا تنجيهم من شر ما فيها . ولا خير إلا في إزالتها من فوق الأرض فالرسول صلى الله عليه وسلم إذ أشار بقتل كعب بن الأشرف لم يخرج عما تمليه الحكمة والحرص . ثم إن أماننا أمراً آخر لا نذكره لدفع افتراءات المستشرقين فما قدمناه كاف لأن يلجم ألسنتهم ويسكتهم عن مثل هذه الأقوال ، وإنما نذكره لأنه أمس بموضوعنا الذي نتحدث عنه : فقد نسوا - هدام الله - أن

الخدعة من أسلحة الحرب التي أقرتها الأمم جميعاً ، ولم تحرمها كما حرمت الغارات السامة في العصر الحاضر ، وكما سوف تحرم القنبلة الذرية إذا شاء الله . فهي ضرورة من ضرورات الحرب لا مناص منها لمن أراد النصر والغلبة . والرسول عندما ندب الناس لقتل كعب كان في وقت حرب وقتال إن لم يكن متصلاً فإنما هو سلسلة من الغزوات بين كل واحدة والأخرى فترة استعداد . وقد كان مقتل كعب بن الأشرف بين بدر وأحد في وقت يريد الرسول أن يتأهب فيه لحرب قادمة قد يشنها عدوه الموتور . وقد كان كعب يؤلب العرب على رسول الله بعد بدر ، فكأنما هو يحاربه أو يعد العدة لحربه . فالرسول إذ يأمر الناس بقتله إنما يبتدر عدواً له بالهجوم بعد إذ وثق من إصراره على حربه ، شأنه في بعض غزواته وحروبه . ولا يعاب عليه إذا قال لأصحابه اخذعوا كعباً ما دام في حرب أو قتال .

وفي غزوة الخندق جاء نعيم بن مسعود رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : « إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمضى بما شئت » فقال رسول الله له « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » فذهب نعيم إلى بني قريظة ، وكان عشيراً لهم في الجاهلية فدخل عليهم ولما يعلموا بإسلامه وقال لهم « يا بني قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بيني وبينكم » قالوا « صدقت لست عندنا بمتهم » فقال لهم « إن قريشاً وغطفان ليسوا كاتم . البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرُونَ على أن تحولوا منه إلى غيره . وإن قريشاً وغطفان قد جاؤا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه . وبلدكم وأموالهم ونساؤهم وبغيه . فليسوا كاتم ! فإن رأوا نهرة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا

طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنجزوه » فقالوا له « لقد أشرت بالرأى » ثم مضى إلى قريش فقال لهم « قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمداً وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني » قالوا « نفعل » قال تاملوا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا . فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم . فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً ! » ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم ما قال لقريش . وفي ليلة السبت من شوال سنة خمس بعث قريش وغطفان إلى بنى قريظة يدعونهم إلى قتال محمد . فاعتذرت قريظة بأن اليوم يوم سبت حيث لا يعملون احتراماً لشعائرهم ، ثم قالت « ولسنا مع ذلك بمقاتلي محمد حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشروا إلى بلادكم وتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه » واعتقدت قريش وغطفان بعد إذ سمعتا قول قريظة أن ابن مسعود صادق في قوله مخلص في نصحه . وأرسلتا إلى قريظة تقول « إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا . فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا » واعتقدت قريظة بعد أن سمعت قول قريش أن ابن مسعود صادق في قوله مخلص في نصحه . وامتنعت عن القتال فخذل الله بينهم وفرق جمعهم ثم أرسل الريح والمطر ، والرعد والبرق ، وقذف في قلوب الذين كفروا الرعب فولوا الأدبار .

فالخدعة من نظم الحرب في حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد حث الرسول عليها حيث لا يصلح غيرها ، أو حيث تجدي هي أكثر من غيرها . فرجل مثل كعب بن الأشرف ، كيف تصل إليه الرماح وقد تحصن بعد أن أهدر الرسول دمه ، فأصبح طريد المسلمين ؟ هل غير الخدعة طريق إلى استدراجه والقضاء عليه ؟ ! ورجل كنعيم بن مسعود ، ماذا عساه أن يفعل أمام الأحزاب مجتمعة وهو رجل واحد لا عون له ؟ هل غير الخدعة طريق إلى حربهم ؟ . لا شك أنها إن لم تكن السلاح الوحيد الذي يصيب الهدف حيث أشار بها الرسول ، فهي خير سلاح يصيب ذلك الهدف .

الحرب الاقتصادية

وهذا النوع من أنواع الحروب عرفته الحكومة الإسلامية الأولى كما يعرفه الناس في هذه الأيام . وإن ذلك ليتجلى في غزوة بدر الكبرى . تلك الغزوة التي بدأت بمحاولة بذلها المسلمون ليصادروا تجارة قريش ، فقد خرج أبو سفيان في غير لقريش ينفى تجارة في الشام . فلما علم الرسول بهذه العير تحمل خيرات قريش كلها أمر تقرأ من المسلمين أن يخرجوا إليها لعل الله يجعلها لهم ، فتصاب قريش في مصالحها الاقتصادية ، وتضطر إلى الاذعان لما يرجوه المسلمون من إفساح سبيل الدعوة إلى الله . ولكن أبا سفيان سارع فغير طريقه وساحل البحر فنجأ بالعير . ومن العجب أن يطلع علينا بعض كتاب أوروبا بما يشف عما تخفيه قلوبهم من تعصب أعمى لدينهم ، وحقد دفين للإسلام ، فهم يسمون هذه السرايا قطعاً للطريق ، ولو أنصفوا لقالوا إنها هي حرب المصادرة التي أقرها القانون الدولي وعرقها الحروب الحديثة سلاحاً من أشد أسلحة الحرب مضاء وقوة ، ومن أقلها ضرراً بالنفوس وإزهاقاً للأرواح . وهذه مجلة «تروث» اللندنية تحدثنا عن هذا النوع من أنواع الحروب فتقول : « إن الحرب الحديثة حرب مصادرات وتضييق ، فالجانب الذي يتغلب على الآخر في مصادرة بضائعه هو الذي يكسب الحرب ! إن الحصار البحري فضلاً عن إنه سلاح ناجح ، قد قل بواسطته عدد القتلى في الحروب ، فإذا أخفق في مهمته لم تكن الخسارة بالشئ الذي لا يحتمله المحاربون ، وقد جعلت البحرية البريطانية من همها أن يقل عدد السفن التجارية التي تفرق في عرض البحار ، إن الحصار البحري الناجح

— مع ماله من قوة — لا يحتاج في تنفيذه إلى شيء من العنف ، فقد تقضى السفن الحربية مدة الحرب جميعها دون أن تسمع كلمة « ارفع البندقية وكن مستعداً » وقد بلغنا عن طريق الأسر ومصادرة السفن ضعف ما بلغه عدونا بإغراق السفن بواسطة « الغواصات » . فالحصار البحري — وهو سلاحاً في الحرب — هو أقوى الأسلحة وأكثرها اقتصاداً في المال والأرواح .

اقرأ يا أخى هذه الفقرات التى كتبتها المجلة الإنجليزية ، وانظر كيف تشهد بأن حرب المصادرة أو حرب الحصار أو الحرب الاقتصادية إنما هى سلاح عبقرى من أسلحة الحرب وأنها ليست قطعاً للطريق كما يزعم الجهلة المتعصبون . وامنض معى اتعلم كيف عرف المسلمون الأولون هذا السلاح معرفة واسعة النطاق ...

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كاد ينزل أدنى ماء بيدر حتى قال له الحباب بن المنذر « يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، قال يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال عليه السلام : لقد أشرت بالرأى ونهض حتى نزل بأدى ماء من القوم ، ثم غور القلب وبنى حوضاً على القلب الذى أتاه . وما فعل عليه السلام ذلك إلا تقديرأ لأثر الحرب الاقتصادية فى سحق قوة العدو . فمنع الماء ومنع الطعام إنما هو سلاح من أسلحة الحرب لا ريب . وتحقيقاً لهذه السياسة الحربية ، كان عليه السلام يحصر أعداءه إذا ما اجتمعوا بقلاعهم ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ، حتى يستسلموا أو يخرجوا للقتال وقد حاصر بنى النضير وأهل خيبر والطائف . أما بنو النضير فقد أقاموا

في حصونهم وامتنعوا عن لقاء المسلمين ، فأرسل كبيرهم إلى رسول الله يقول « إنا لانخرج من ديارنا وأموالنا فليصنع ما بدا له » ... وما عساه أن يصنع ؟ هل أمامه إلا الحصار حتى يطلبوا الصلح ، أو إحراق نخلهم حتى يخرجوا من حصونهم خوفاً عليها ؟ ولئن نادوه بعد إذ حرق نخلهم « أن يا محمد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها » فقد قال تعالى للمسلمين « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » وقد ذكرنا في الفصل الثالث من الباب الأول ^(١) أن بني النضير قد بدؤوا بالظلم ونقض العهد . فمن شاء فليرجع ليقبس تحريق النخل بما فعلوا . وما يذكر في هذا المقام قول الأستاذ أحمد حسين في كتاب الحرب « وعلى ذلك فإن ما تعتمد إليه الدول الحديثة من محاولة تدمير منشآت العدو العسكرية كالصانع ، ومحطات توليد الكهرباء ، وخزانات المياه ، والجسور ، ووسائل المواصلات ، ومحطات السكك الحديدية ، وإتلاف الآلات الزراعية وكل ما من شأنه تعطيل الإنتاج وشل يد العدو عن مواصلة القتال هو جزء لا يتجزأ من شرعة القتال وهو واجب ومشروع من ناحية المدافع عن نفسه » .

أما أهل خيبر فقد كانت لهم حصون شتى يحتمون بها . فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفتتحها حصناً بعد حصن . بدأ بحصن ناعم ، ثم ثنى بحصن القموص . فحاصر اليهود فيه عشرين ليلة ، ولما تحصن اليهود بقلعة الزبير ، حاصرهم رسول الله ثلاثة أيام حتى جاءه رجل من اليهود وقال له :- « يا أبا القاسم : إنك لو أقت شهرأ ما بالوا . إن لهم شراباً وعيوناً تحت الأرض يخرجون بالليل

(١) حكومة الرسول « الجزء الأول » .

فيشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعهم فيمتنعون منك . فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك » فقطع الرسول عليهم الماء ، وأجبرهم على ترك القلعة إلى حيث يلاقونه وأصحابه . ولما افتتح هذه القلعة تقدم حتى أتى آخر حصونهم « الوطيح والسلام » وقد احتفى القوم بها فهم لا يخرجون ، فحاصرهم رسول الله أربعة عشر يوماً وهم أن ينصب عليهم المنجنيق لولا أن سألوه الصلح . وأما أهل الطائف فقد حاصرهم بضعاً وعشرين ليلة كما يقول ابن إسحق أو سبع عشرة ليلة كما يقول ابن هشام . وكان عليه السلام يصلى مدة الحصار بين قبتين ضربتا لزوجتيه أم سلمة وزينب رضى الله عنهما .

وكى ندرك أثر الحرب الاقتصادية في تقرير مصير الحروب ينبغى أن نقرأ ما كتبه أحد كتاب الفرنجة إذ يقول « لقد كانت هزيمة ألمانيا الاقتصادية في الحرب العظمى الماضية أشد من هزيمتها في ميادين القتال ، فقد أنتج الحصار البحرى نتائجها المنشودة فقلَّت الموارد ، ونقصت المؤن والذخائر ، وجاع الشعب الألمانى ، فأرغم حكومته على التسليم ، وفى هذه الحرب - يقصد الحرب العظمى الثانية - تستخدم إنجلترا وفرنسا نفس هذا السلاح البتار ، وتخوضان غمار حرب اقتصادية ليست دون العسكرية إضراراً بالعدو وإضعافاً لروحه المعنوية . وقد بلغ من اهتمام إنجلترا بالحرب الاقتصادية أنها أنشأت لها وزارة خاصة ضمن وزاراتها ، واختارت لها رجلاً من رجالها وهو المستر « كروشن » الذى كان قبل ذلك سكرتيراً برلمانياً لمجلس التجارة . وقد اشتغل فى عمل البنوك سنوات طويلة ، ثم رشح نفسه لعضوية مجلس العموم فى سنة ١٩٣١ فانتخب كنائب من المحافظين وفعلت فرنسا مثل ذلك » .

عرب الله سبحانه

وكان من نظم الحرب في حكومة الرسول التأثير في روح العدو المعنوية فلم يكن
كان يلذ للرسول أن يعرف أعداؤه عنقه القوة والبأس ، فتمتلىء قلوبهم رعباً ،
ويستسلمون دون قتال . من ذلك ما حدث في عمرة القضاء . فما كاد رسول الله
صلى الله عليه وسلم يبلغ المسجد حتى قال « اللهم ارحم امرأ أراهم اليوم من نفسه
قوة » ولقد أسر عبد الله بن رواحة أن ينادى بأعلى صوته أن لا إله إلا الله وحده
صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » فأخذ ابن رواحة
يمجهر بهذا النداء الإلهي ، والمسلمون يرددون من ورائه في قوة وحاسة وإيمان ،
فترجأ أرجاء مكة ، وترتجف قلوب قريش إذ تسمع كلمة التوحيد عالية مدوية ،
وترى الإيمان يتدفق من قلوب زائديها حياة وملاها قوة ، فتعلم أن القوم الذين
فارقوا الأوطان من أجل العقيدة ، لن يتخلوا يوماً عنها ولو فارقوا الروح من أجلاها
ومن ذلك ما حدث يوم الفتح . فقد خرج الرسول في عشرة آلاف من
المسلمين يريد قريشاً . ولقي ببعض الطريق عمه العباس ، فأذن له بالذهاب إلى
أهل مكة ، يخبرهم بما رآه من قوة جيش المسلمين ، وكثرة عددهم وعدتهم ، حتى
يأخذهم اليأس والفرع فلا يقاتلوا وتصبح مكة بلداً حراماً كما يجب أن تكون
فركب العباس بغلة الرسول البيضاء ، ومضى إلى مهمته . فقابل أبا سفيان وهو
يستطلع لقريش ، فناداه قائلاً : « ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله في الناس
واصبح قريش إذا دخل مكة عنوة ، فقال له أبو سفيان في ذلة وضعف : فما الحيلة
فذاك أبي وأمي ؟ » فأجابه العباس بقوله « والله لن ظفر بك ليضربن عنقك ،
فأركب في عجز البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمنه لك »

فركب أبو سفيان خلف العباس وأسلم بين يدي الرسول .

ولما أسلم أبو سفيان أمر الرسول بحبسه حتى تمر به جيوش المسلمين فيحدث قومه بما يرى . فلما مرّوا عليه قال للعباس بعد أن ذُهل بهذه الكتائب التي لم يكن يظن أن تتجمع لرسول الله يوماً :- « يا عباس . مالأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً » ثم أسرع إلى قومه فناداهم أن يا معشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » وكان لهذا أثره العظيم في نفوس قريش ، فقد تفرق أبناؤها : فريق إلى المسجد وآخرون إلى دورهم أو إلى دار أبي سفيان . ولم يلق منهم رسول الله حرباً أو قتالاً إلا في أسفل مكة حيث خالد بن الوليد .

وغنى عن البيان أن هذا الذي حدث في عمرة القضاء وغزوة الفتح ، مما قدمنا الحديث عنه إنما هو حرب الأعصاب في مصطلحات السياسة الحربية المعاصرة . وهو سلاح حرصت عليه الدول الحديثة في الحرب العالمية الأخيرة كل الحرص فكم راجت تلكم الشائعات التي راحت تعلن في كل مكان عن أسلحة سرية جديدة تفتك بالعدو فتكاً ذريعاً إذا استعملها أصحابها ، وكم سمعنا عن الغرفة رقم « ١٣ » التي هددت ألمانيا بما تحويه من سلاح خطير ، أو عن الطائرات « الاوتوماتيكية » التي تنطلق دون طيار ، أو عن « الطرديد » الذي يصيب الهدف ، ولو تحرك الهدف عن مكانه . إلى غير ذلك من الشائعات التي لم نرها الاخيالاً طائراً لا يعرف الحقيقة الواقعة أبداً . وليس من شك في أن هذه الشائعات إنما هي حرب الأعصاب بعينها . تلك الحرب التي تؤثر في الروح المعنوية أبلغ الأثر ، فتعجل بالهزيمة والإستسلام .

وكى ندرك قيمة هذه الحرب ينبغى لنا أن نسجل مقدار اهتمام الدول بها فى الحرب العالمية الثانية « فلقد كانت ألمانيا تنفق على الدعاية الخارجية بسخاء غريب . إذ بلغت ميزانية وزارة الدعاية الألمانية عشرين مليوناً من الجنيهات ، حتى أقدم اعتقال الدكتور شاختم مدير بنك ألمانيا احتجاجاً على سياسة جوبلز الذى كان يستنزف كل ما لديه من خزائن البنك من الذهب لشراً للدعاية فى جميع البلاد . ولكن هتلر آثر دعاية جوبلز على ذهب شاختم وما حرب الأعصاب التى حطمت كثيراً من الدول واذلت كثيراً من الشعوب إلا لون من ألوان الدعاية التى يقوم بها ذلك الداعية الخطير جوبلز »^(١)

الطابور الخامس

والطابور الخامس تسمية حديثة لتلك العناصر الداخلية التي تعين الغزاة بالجنس واستطلاع الأخبار وتشبيط الهمم . وقصة هذه التسمية ان أحد قادة الجنرال فرانكو في الحرب الاهلية الاسبانية كان يقود أربعة فرق من الجيش ليحتل بها مدريد . فقبل له كم تقود من فرق الجيش ؟ قال خمسة ! قيل وأين الخامس ؟ قال داخل مدريد ! وإنما يقصد بذلك انصار الجنرال فرانكو فيها . ولقد كان الطابور الخامس في الحرب العالمية الأخيرة ثمراً مستطيراً يفل مقاومة الدول ويجعلها فريسة المستعمرة في أقل من لمح البصر . فلقد كان يعين جنود الهاباطات (الباراشوت) على تدمير خزانات المياه ومراكز المواصلات الحديدية ، ومحطات توليد القوى الكهربية ، كما كان يدير دفة حرب الأعصاب بما يوهن العزائم ويدفع إلى اليأس القاتل والتسليم الذليل . ومن هنا عمدت الدول على مقاومته والخلاص منه ما وسعها الجهد .

ولقد كانت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم احرص الحكومات على درء هذا الخطر ، واقدرها على الخلاص منه ، بما أخذت عن القرآن الكريم من دروس اليقظة والحذر ، والقوة والحزم . فإثن كان الطابور الخامس قد عجل من استسلام بعض دول أوروبا في الحرب العالمية الأخيرة ، لقد كان أظهر من أن يغيب عن أعين الحكومة الإسلامية الأولى ، وأوهن من أن ينال منها أو يقف أمام حزمها وقوتها . والطابور الخامس إذ ذاك قد كان يتكون من عنصرين اثنين ، هما اليهود والمنافقون .

فأما اليهود فقد ألهم الله رسوله الحذر منهم أول عهده بالمدينة ، حتى لقد

عاهدكم عهداً يحذركم فيه من الظلم والسكيد للمسلمين ، وينذركم إذا هم فعلوا شر
الجزاء وسوء المصير ، فقال « لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم
الا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) الأ نفسه وأهل بيته » وقد قدمنا القول
عن هذا الحديث في الفصل الثالث من الباب الأول^(١) فقلنا « وإنما يعنى الرسول
صلى الله عليه وسلم بالظلم ما قد يقوم به اليهود من محاولات لايجاد الفتن وصد
الناس عن الدخول في الإسلام ، إلى غير ذلك من الأمور التى تضر الإسلام
أبلغ الضرر ، وتقف حجر عثرة في سبيل انتشاره وتقدمه .

وقوله للظالم منهم إن ظلمه إن يكون الا ظلماً لنفسه ، إنما هو تهديد لهم ،
وإظهار لقوة المسلمين وبأسهم ، وتحذير لهم مما قد تسوله لهم أنفسهم أو تزينه
لهم شياطينهم . وقد كرر الرسول هذا المعنى في وثيقته مراراً ، فكأنما كان
يشمر انه لن يتم بين اليهود والمسلمين وفاق ، لأن اليهود سينزعون إلى العداوة
والشقاق ، والدمس والسكيد والنفاق ، فيقطعون العهد والميثاق ، فأراد أن يلتبس
لنفسه العذر إلى الله والناس والضمير ان هو ذكّل بهم بعد ظلمهم وخروجهم
على العهد الذى بينه وبينهم . فقد أنذركم كثيراً ، وقد أعذر من أنذر

ولا شك أن هذا الانذار والتهديد إنما أراد به الرسول صلى الله عليه وسلم
أن تستقر الحال في المدينة فلا يكون هناك نزاع داخلى بين المسلمين واليهود ،
فتستغل قريش الفرصة ، الأمر الذى يمنع الرسول من نشر الإسلام خارج
المدينة « ثم انه صلى الله عليه وسلم قد قدر ما قد تقوم به العناصر الداخلية أو الطابور
الخامس من جس لقريش فحرم خروج اليهود من المدينة بغير اذنه ، ونهى على
ذلك في وثيقته ولقد قدمنا الحديث عن ذلك في الفصل الثالث من الباب الأول^(١)
أيضاً فقلنا « فقد كان عليه السلام يتوقع غدر اليهود به ، ويشك في اخلاصهم

له ، فحرم عليهم الخروج من المدينة بغير إذنه ، كي يراقب حركاتهم ، ويقف على أمرهم ، ويأمن في الوقت نفسه شرهم . فليس يبعد أن يخرج منهم من يفشى أسرار المسلمين ، ويخبر قريشاً بما يود الرسول لو كتمه عنها . وليس يبعد أيضاً أن يخرج من اليهود من يؤلب القرشيين على رسول الله فيشعل بين الفريقين نيران الحرب والمكيدة » .

ولقد حدث فعلاً أن خرج كعب بن الأشرف - أحد زعماء بني النضير - من المدينة بغير إذن الرسول ، وذهب إلى مكة يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينشد الأشعار في رثاء قتلى قريش يوم بدر ، ويشبب بنساء المسلمين حتى أهدر الرسول دمه فقال « من لكعب بن أشرف فانه قد آذى الله ورسوله » . ولقد كان جزاء بني النضير بما كادوا للمسلمين ونالوا مع قريش أن يكل بهم الرسول صلى الله عليه وسلم . ولقد استلطنا القول عن ذلك في الجزء الأول من الكتاب .

وقد قام بنو قريظة بدور الطابور الخامس بعد ما اجلى الرسول اخوانهم من بني قينقاع وبني النضير عن المدينة . وقصة ذلك أن كبير بني النضير حى بن اخطب خرج من خيبر - التي نزل بها بعد جلأته عن المدينة - إلى مكة يؤلب قريشاً على رسول الله . فسألوه عن قومه فقال : - تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه . ثم سألوه عن بني قريظة فقال « أقاموا بالمدينة مكرراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم » ومعنى ذلك أن حى ابن اخطب أردا أن يتخذ من بني قريظة « طابوراً خامساً » ، إذ أنه علل بقاءهم في المدينة بالسكر ل محمد ، وذكر أنهم ينتظرون الحرب الخارجية ، ليقوموا بدورهم من الداخل فيأتوا المسلمين من فوقهم بينما الأحزاب تأتيهم من أسفل منهم كما

قال الله تعالى (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا : هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً » .

ولخطورة الدور الذي يلعبه « الطابور الخامس » نزل الله الروح الأمين ليأمر رسوله بقتال بني قريظة ، فاستجاب الرسول لأمر ربه وأمر المسلمين ألا يصلوا العصر الا في بني قريظة ، حثاً لهم على السرعة في الذهاب اليهم والحق بهم ، فسارع المسلمون اليهم ، وحاصروهم حتى نزلوا عند حكم رسول الله فيهم .

* * *

أما المنافقون فقد كانوا يتهمزون الفرص ليكيّدوا للإسلام والمسلمون . من ذلك ما حدث بعد غزوة بني المصطلق ، إذ ازدحم اجير لعمر بن الخطاب يقود فرساً مع رجل من الأنصار على الماء فتشاجرا ، وكادت الفتنة تشمل المهاجرين والأنصار جميعاً لولا أن أصلح الرسول الكريم ذات بينهم ، وألف - بفضل الله بين قلوبهم . ولكن ابن أبي شيخ المنافقين ما كان ليترك هذه الفرص تفلت من يده دون أن يستغلها استغلالاً سيئاً دينياً ، فلقد أخذ يحدث من حوله من الانصار قائلاً « ما رأيت كاليوم مذلة ! لقد كاثرتنا المهاجرون في ديارنا . والله ما اعدنا وإياهم إلا كما قال الأول سمنك بك يا كلك ، إما والله لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل : وظل يث أفكاره السيئة ليقوض أركان الأمة الإسلامية الناشئة . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أفسد عليه كيده هذا بحسن سياسته ، إذ أمر المسلمين بالرحيل في ساعة شديدة الحر كي يشغلهم عن الحديث بدعوى الجاهلية .

ولقد همت طائفة منهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم هموا بما لم ينالوا ، فقد احبطت يقظة المؤمنين خطتهم وفسدت عليهم تدبيرهم .
والذى نلاحظه فى هذا المقام أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقاتل المنافقين كما قاتل اليهود . بل لقد رفض أن يقتل رئيسهم لما سأله عمر ذلك .
ويرجع ذلك إلى أمور .

(أولا) أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يريد أن يتهم بقتل أصحابه
كى لا ينفر الناس من دينه ، وفى ذلك يقول لعمر : « كيف يا عمر إذا تحدث
الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه ؟ » .

(ثانيا) أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يستميل المنافقين إلى الإسلام بلطفة
وعفوة ، حتى أنه لما أحسن بنجاح سياسته قال لعمر « كيف ترى يا عمر ! أما والله
لو قتلته يوم قلت لى أقتله ، لا رعدت له أنوف ، لو أمرتها اليوم أن تقتله لقتلته »
فقال عمر « الخير ما رأيت با رسول الله » .

(ثالثا) أن اليهود كانوا يجاهرون الرسول بالعداء ، ويسبونونه فى غير استحياء
ويتحدونه ساعة اللقاء ، فاستحقوا منه النكال والإجلاء ، فأما المنافقون فكانوا
يعملون من وراء حجاب ، فاذا عوتبوا أقسموا أمام رسول الله ما فعلوا ، فظاهرهم
الموادعة وباطنهم الكيد والنفاق ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يحكم على
الظاهر ويكل السرائر إلى الله .

وفى ذلك يقول ابن القيم « أنه كان فى ترك قتلهم فى حياة النبى صلى الله
عليه وسلم مصلحة تتصل بتأليف القلوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع
كلمة الناس عليه وكان فى قتلهم تنفير والإسلام بعد فى غربه ورسول الله أحرص
شئ على تأليف الناس وترك شئ لما ينفرهم عن الدخول فى طاعته . وهذا أمر
كان مختص بحال حياته صلى الله عليه وسلم » .

رجع الى قواعدنا !

ومن خير ما يذكر لقادة الحرب في الحكومة الإسلامية الأولى ، مقدرتهم على الخروج من مأزق القتال دون أن يصيبهم سوء أو يلحقهم أذى . فلقد حدث يوم مؤنه أن قتل زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحه وهم الذين قادوا جيش المسلمين الواحد بعد الآخر . واصطاح الجند على خالد بن الوليد ، فحمل اللواء وقادهم .

تولى خالد القيادة ، فأصبح في حيرة من أمره ، فهو لا يدري ماذا يفعل أيقا تل فيقتل ، ثم يصطاح المسلمون على قائد آخر يتقدم للقتال فيقتل وهكذا حتى يفنى جيش المسلمين ؟ لا شك أن الحكمة تتطلب غير هذا السبيل . وقد كان خالد حكيما إذ أثر الرجوع من حيث أتى . وهنا تتجلى العبقرية : فمن أسهل الأمور على الجيوش أن ترتد وتتقهقر وسهام العدو ونباله تسكاد تفتك بها وتمزقها شر ممزق .

ومن أصعب الأمور عليها أن ترجع سالمة قبل أن تحل بها الهزيمة التي رأت بواردتها ؟ ! .

وقد رأى خالد بوادر الهزيمة بموت من سبقه من القواد . وقد خلاص جيش المسلمين من هزيمة محققة . فيا لها من عبقرية ! لقد بدل خالد مواقف الجيش مخضيا في ظلمة الليل . فنقل اليمينه إلى اليسرة ، واليسرة إلى اليمينه . وجعل المقدمة في موضع الساقة ، والساقة في موضع المقدمة . وأقام من خلف الجيش أناساً

يشيرون الغبار ، ويكثرئون الجلبة والضوضاء : فرأى الروم وجوها غير التي رأوها ، وسمعوا اصواتاً شتى . فاعتقدوا أن العرب قد واتاهم المدد . وإذا كان العرب على قلتهم لم يهربوا كثرة الروم ، بل اندفعوا يقاتلون ويقتلون ، فكيف بالنصر لا يكون حليفهم إذ زاد عددهم وعدتهم . . لا شك أن الروم قد بدءوا يؤثرون السلم خوفاً من الهزيمة الموهومة . . وبينما الروم في هذه الرهبة والانحلال النفسى إذ بحالد يدفع بنفسه إلى صفوفهم ضارباً بسيفه ورمحه . راداً إياهم عن المسلمين الذين اخذوا يرتدون إلى المدينة .

وبذلك رجع خالد إلى قواعده سالماً !
وهذا الفن من فنون الحرب يكبره القادة في هذه الأيام ، فقد طبل الحلفاء وزمروا وملثوا الصحف فخراً بقادتهم عندما انسحبوا انسحاباً موقفاً من بلجيكا في الحرب العالمية الأخيرة ، بعد أن شهدوا معركة الفلاندر الرهيبة . ولست انكر ما في انسحابهم هذا من مهارة وحذق . فلقد كان موقفهم اشد ما يكون حرجاً بعد أن استسلمت قوات البلجيكيين للألمان . . وقد كانت تحتل أهم المواقع في جيوش الحلفاء . فما كاد الجيش البلجيكي يلقى السلاح ، حتى احتل مواضع الألمان ، وحاصروا قوات الحلفاء ، ولم يكن بد من الانسحاب ، ولكن الجيش المتسحب ما كاد ينظر إلى الخلف حتى وجد طريق الانسحاب ضيقاً ، تحده المناطق المائية من جانبه ، وبسده البحر من آخره . ولقد زاد ضيق الطريق من حرج الموقف ، إذ أن تجمع القوات الكبيرة في البقعة الصغيرة يمكن طائرات العدو منها أكثر مما لو انتشرت في بقعة واسعة من الأرض . اصف ذلك إلى اعتمادهم في الانسحاب على ميناء دنكرك وحده ، بعد أن تعذرت الملاحة في بعض الموانئ الأخرى نتيجة لاغراق بعض السفن الحاملة بالأسمنت فيها .

لست انكر - والحالة هذه - أن انسحاب الخلفاء فيه كثير من البراعة
الحربية والحذق العسكري . إنما الذي احب أن أسجله هنا أنهم لم يفعلوا أكثر
مما فعله المسلمون في سرية مؤتة ؛ وأن قادة الحرب في حكومة الرسول قد سبقوا
عبارة القتال في القرن العشرين بيد أنهم لم يتعلموا القيادة في المدارس والجامعات
وإنما تعلموها على رمال الصحراء ! .

جلس الحرب

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الناس مشورة لأصحابه في أمر الجهاد وأمر العدو وتخير المنازل . وكان كثيراً ما ينزل عند آرائهم ويأخذ بمشورتهم .

ففي غزوة بدر لما بلغه خروج قريش استشار أصحابه فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً فأجادوا . ثم استشارهم ثالثاً يريد الانصار .

فلما تكلموا بما يرضيه سار حتى بلغ بدرأ ، فنزل بأدنى ماء منها : فقال له الحباب بن المنذر : « يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه . ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال :

« بل هو الرأي والحرب والمكيدة » قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ،

ثم نبني عليه حوضاً فتملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . وانهض حتى نزل بأدنى ماء

من القوم ، ثم غور القلب وبنى حوضاً على القلب الذي أتاه . وقد قال سعد ابن معاذ لرسول الله « يا بني الله الا نبني لك عريشاً نكون فيه ، ونعد عندك

ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد

تحلف عنك أقوام يا بني الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تحلفوا عنك يمنحك الله بهم يناصرونك ويجاهدون معك » فدعا الرسول

له بالخير ونزل عنده مشورته ، فكان في العريش لما بنى له ... وفي غزوة أحد استشار الرسول أصحابه : — أخرج إلى أعدائه أم يمكث في المدينة ؟ وكان عليه السلام

يرى السكت في المدينة والتحصن بها حتى إذا قدمها المشركون قاتلهم الرجال في الأزقة والنساء من فوق البيوت ولكن القوم أشاروا عليه بالخروج إلى العدو حتى لا يظن أنهم جبنوا أو ضعفوا عن لقائه . فلما رأى الرسول إجماعهم على ما يرون وإلحاحهم في الخروج ، سارع إلى بيته ولبس لامته ، فظن الصحابة أنهم أكرهوا رسول الله على الخروج وقالوا « يا رسول الله إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضمها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » فلم يستبد الرسول برأيه إذن ، ولم يكره أصحابه عليه ، بل عمل برأى الأغلبية منهم ، وخرج للقاء قريش . وفي غزوة الأحزاب استشار الرسول أصحابه في أمر عدوه . فأشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق وتحصين المدينة من الداخل . فلم يضرب الرسول بمشورته عرض الحائط ، ولكنه نفذها ، فأمر المسلمين بها ، وشجعهم عليها .

وإن استشارة الرسول لأصحابه قبل أن تبدأ المعارك تشبه بما نعرفه اليوم بإسم « مجلس الحرب » : ذلك المجلس الذي يضم قادة الحرب وأساطين السياسة ، ويبحث شئون القتال وتطورات الموقف الحربي . ولقد كان قبول الرسول صلى الله عليه وسلم لمشورة أصحابه أو « مجلس حربه » دعامه هامة من دعائم النصر الذي أحرزه .

ولقد أيدت الحروب الحديثة أن اعراض الزعماء عن مشورة القادة وآراء الخبراء ، واستبدالهم بالأمر في شئون القتال . يؤدي حتما إلى الهزيمة الساحقة والخسران المبين .

مجلس الأمن الإسلامي

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد الناس إعجاباً بفكرة الأمن والسلام ورد الظلم والعدوان . ولقد شهد جماعة تحيي هذه الفكرة في الجاهلية فأنشئ عليهم بالخير . وقصة ذلك أن رجلاً من بني زبيد قدم مكة معتمراً في الجاهلية ومعه تجارة له ، فاشتراها منه العاصي بن وائل السلمي ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، ثم تغيب ، فابتغى الزبيدي متاعه فلم ينله ، فجاء إلى بني سهم يستعديهم على العاصي بن وائل ، فأعرضوا عنه . فأخذ يطوف بقبائل قريش يستعين بهم ، ولكن عبثاً . فلقد نأذنت عنه وانهته الاحلاف حتى إذا خشي الزبيدي على متاعه أوفى على « أبي قبيس » عند طلوع الشمس وقد أخذت قريش مجالسها حول الكعبة . فصاح فيهم مستنجداً . فأغاثة الزبير ابن عبد المطلب ، وحلف ليعقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش ليمنعوا القوى من ظلم الضعيف والقاطن من ظلم الغريب ، فقال :

حلفت ليعقدن حلفاً عليهم وإن كنا جميعاً أهل دار

نسمة الفضول إذا عقدنا يعزبه الغريب لدى الجوار

ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

ثم قال الزبير : إني والله لأخشى أن يصيبنا ما أصاب الأمم السالفة من سأكى مكة ، ومشى إلى عبد الله بن جدعان وهو يومئذ من شيوخ قريش ، فخطبه في ذلك ، واجتمعت كلمة بني هاشم وبني عبد الأسد وبني زهرة وبني مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا . وكانت حرب الفجار في شعبان وحلف الفضول بعدها في ذي القعدة قبل مبعث رسول الله صلى الله

عليه وسلم بعشرين سنة . فتحالفوا في شهر حرام قياماً يتماشكون با كفهم ، وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد حتى يأخذوا له بحقه ثم عمدوا إلى ماء زمزم ، فجعلوه في جفنة وبعثوا به إلى البيت ففسلت به أركانها ، ثم أتوا به فشر به ، ثم انطلقوا إلى العاصي بن وائل فقالوا « والله لا نفارقك حتى تؤدى إليه حقه ، فأعطى الرجل حقه ومكثوا كذلك لا يظلم رجل بمكة إلا أخذوا له حقه .

وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحلف . فقالت عائشة فيما روى عنه أنه قال : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول أما لو دعيت إليه اليوم لأجبت . وما أحب أن لي به حمر النعم وأنى نقضته » .

فلقد كان عليه السلام يعتز بفكرة الأمن ورد المظالم ، تلك الفكرة التي أحيانا الإسلام في هذه المادة من دستوره الحربى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأفسطوا إن الله يحب المقسطين » .

وهذه المادة من دستور الإسلام الحربى هى ميثاق مجلس الأمن الإسلامى . وهى تتركز في خطوات ثلاث :

(أولاً) الصلح : وهو محاولة يبذلها ممثلوا الأقطار الإسلامية لإصلاح ذات البين بين الطائفتين ، فيدرسوا أسباب الخلاف ، ويعينوا المعتدى والمعتدى عليه فإن أفلحوا في صد المعتدى بالحكمة والموعظة الحسنة فيها ، وكفى الله المؤمنين القتال .

(ثانيا) القتال : وإذا لم تجد الوسائل السلمية لم يكن بد من ردع المعتدى بالقوة حتى يقطع عن غيه . ووسيلة مجلس الأمن الاسلامى فى ردع البغاة هى قوة السلاح ، لأنها خير وسيلة تصل إلى الهدف فى يسر وسهولة . والذي يتتبع تاريخ عصبة الأمم ، ويتبين فشلها فى معالجة المشا كل الدولية ، نتيجة إعراضها عن سلاح القوة أو قوة السلاح فى دفع الظلم ورد العدوان ، يزداد يقينا بأن قتال المعتدى هو خير وسيلة لردعه وتأديبه ، إن لم يكن - وحده - الوسيلة الرادعة .

ففى الدور الأول من الخلاف بين الصين واليابان (١٩٣١ - ١٩٣٣) ، ذلك الدور الذى قام إثر توغل اليابان فى منشوريا ، كان موقف العصبة مانعا لم يعد السعى السلمى والنصح والإرشاد . وكان طبعيا أن تحيب اليابان سعى العصبة وترفض نصحتها ، وأن تستمر فى عدوانها على منشوريا ، متذرعة بما تدعيه من أن الصينيين يوجدون حالة من الاضطراب والفوضى .

وفى المشكلة الحبشية الإيطالية ، لجأت العصبة إلى سلاح المقاطعة . فقد اجتمعت وأعلنت أن إيطاليا معتدية فى السابع من « أكتوبر » سنة ١٩٣٥ ، أى بعد تسعة أشهر من احتجاج الحبشة ، ثم قررت فرض العقوبات الاقتصادية على إيطاليا . وطبعى أن تفوق إيطاليا على الحبشة فى القوة الحربية قد عجل بانتصارها قبل أن تؤثر فيها المقاطعة الاقتصادية وتحد من قدرتها على القتال . وليس بمعجيب - والحال هذه - أن يصرح موسوليني بقوله : « سننفذ إرادتنا مع جنيف ، ومن دون جنيف ، وبالرغم من جنيف ! ! » .

فإن سلاح المقاطعة الاقتصادية لا يجدى فتىلا فى الدفاع عن قضية السلام مادام هناك تفاوت فى القوى المقتتلة . فإذا تعادلت القوى كان أثره بطيئا لا يجعل بالحق ، ولا يطفىء نار الحرب قبل أن تأكل الأخضر واليابس .

وفي الدور الثاني من الخلاف الصيني الياباني (١٩٣٧ - ١٩٣٨) لم ترفع الصين شكواها إلى عصبة الأمم أول الأمر، ثم لم تلبث أن رفعتها بعد شهرين من بدء القتال. وليتها ما رفعت! فما كانت عصبة الأمم لتدفع ظلماً أو ترد عدواناً. وكيف وقد كان حلها «العبقري» لهذه المشكلة أن أعلنت أسفها الشديد «نقيام الطائرات اليابانية بإلقاء القنابل على المدن المكشوفة»!! ومن يدري فلعلها ظنت أن «أسفها الشديد» سيحول بين اليابان وبين العدوان أو بين الطائرات اليابانية وبين المدن الصينية المكشوفة.

إن خير ما نعلق به على سياسة عصبة الأمم ما كتبه «سكرتارية» العصبة نفسها إذ تقول: «إن وسائل التحكيم والتوفيق لا فائدة لها فيما يتعلق بالدول القوية التي أوقدت في نفوس رعاياها نار القومية والعنصرية والتي تسعى إلى تحقيق مطامع واسعة بحجة أن معاهدات الصلح اقتطعت منها بعض أملاكها. ولم تغلها في المستعمرات ما تعتبر أنه حق لها. وكان من الطبيعي أن تحقق مساعي العصبة كلها اقتصر على مطالبة دولة من هذه الدول باحترام العهود والأذعان لأحكام المعاهدات. كما أنه كان من الطبيعي أيضاً أن تغلح هذه المساعي متى كانت الدول المحتكة إليها من غير أنصار العنف ومياله إلى التساهل والتفاهم».

وقد حدث هذا عند حل المشكلة اليونانية البلغارية سنة ١٩٢٥ فلقد جنح اليونان والبلغار للسلم واستجابوا لنداء العصبة

ولقد بدأت الدول تشعر أن عصبة الأمم لا تنصف من ظلم أو ترد من عدوان. وأن الاحتكام إليها والشكوى لها، كعدم الاحتكام والشكوى تماماً. ومن أجل ذلك لم نسمع عن دولة تحتج لدى العصبة على احتلال المانيا للعصا

سنة ١٩٣٨... وهذا دليل على أن سلاح القوة الذي نص عليه ميثاق مجلس الأمن الإسلامي في قوله تعالى « فقاتلوا التي تبغى » إنما هو السلاح الذي يثد الحرب ويعجل السلام .

(ثالثاً) الدور الذي يعقب القتال : وفي هذا الدور تفي الطائفة المعتدية إلى

أمر الله ، وتدعن للحق ، بعد أن صدها القوة المسلحة عن بغيها وعدوانها ، وإذ ذاك يشير ميثاق مجلس الأمن الإسلامي بالرفق واللين ، ويأمر بالعدل والقسط ، عند عقد الصلح بين الطائفتين . لحسب المعتدى أن ردعته الحرب وأدبته القوة . وليس من الحكمة أن نجعل من شروط الصلح جحماً لا يطيقه ، فندفعه إلى الثورة عندما يقوى على الثورة ، ونحفزه إلى التآمر متى وجد إلى التآمر سبيلاً . بل إن الحكمة في أن نصلح بالعدل ونقسط كما أمر تعالى .

ولو أن العالم اتخذ من هذه النظرية الإسلامية دستوراً له ، لجنب نفسه كثيراً من الحروب المهلكة القاسية . فإن ما رأيناه من ظلم الأمم الظافرة للألمان في معاهدة فرساي ، قد حفز الألمان إلى الثورة والانتقام ، حتى أشعلوا نيران الحرب العالمية الثانية . ويقتضى أن الألمان لو وجدوا في هذه المعاهدة شيئاً من العدل والإنصاف لتبدل الأمر غير الأمر ، ولتغير وجه التاريخ في السنوات الماضية . وهكذا يثبت التاريخ الحديث نضج ميثاق مجلس الأمن الإسلامي في خطواته الثلاث . فهل يدرك ذلك زعماء العالم ، أم أن أبصارهم عميت عن نور الإسلام ، وصمّت آذانهم عن دعوته !

قيادة الجيش

لم تكن مهام القيادة الحربية من وضع الخطة وتنظيم الجند تعنى الرسول من القتال كما تعنى قواد اليوم . فقد كان يدعو ربه ثم لا يلبث أن يرى فى مقدمة الصفوف ، يجالد الأعداء بسيفه غير هياب ولا وجل . وكم لاقى فى الحرب من جراح وآلام ، فاستعذبها فى سبيل الله . لا يبالي بالموت يمشی بين الصفوف ، وهو موقن بنصر الله . ولا بالنبل يقذف من كل مكان مادام الله يحميه ويرعاه . فيمده بمجنود السموات تصد عنه الكيد والأذى بإذن الله .

ألم تركيف فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلقوا إلى الصوت الذى يسمعون يستطلعون الخبر . فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقهم إليه على فرس لأبى طلحة ، وقد تقلد السيف ، ثم رجع يقول « لن تراعوا لن تراعوا » . ثم ألم تر ما أصابه يوم أحد ساعة خلص إليه المشركون فخرحوا وجهه الكريم وكسروا رباعيته اليمنى ، وهشموا البيضة على رأسه ، ورموه بالحجارة ، وحفروا له خفرة وقع فيها ...

وأى بطولة هذه التى يسجلها القلم فى يوم حنين ! لقد أخذ المسلمين شئ من العجب ، وتسالت إليهم الغفلة ، فأصابتهم نبال العدو ولما يسفر الليل عن صباح ، فانطلقوا يولون الأدبار فى خوف واضطرب ولم يبق منهم إلا رجل واحد يحيط به نفر قليل من المؤمنين . فاذا الرجل ينادى « إلى أين أيها الناس ؟ » كأنه يريد أن يرجعوا فلا يجبنوا عن لقاء الأعداء . ولكنهم لا يلوون على شئ ، فيقول للعباس « اصرخ فيهم » فينادى بصوته الجمهورى « أن يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة أن محمدًا حي

فهللوا ! » فيسمع القوم نداءه ، ويثوبون لرشدهم ، فيقولون : لبيك لبيك ،
ويسرعون إلى الرجل ، فيخوض بهم المعركة مستتبسلاً ، حتى إذا اشتد القتال ،
واجتلد الأعداء قال :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فلم يكن هذا الذي صمد في وجه العدو ، وآثر اللقاء على الفرار والموت على
الحياة ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهكذا كان قادة المسلمين إذا جد الجد
يقتدون برسول الله ، فيقدمون الصفوف بمسكين بسيفهم يجاهدون العدو حتى
يغلبوه أو يقتلوا .

وهذا هو يوم مؤته ... كم فيه من آيات البطولة والاستبسال ما يعجز عن
وصفها البيان ، ويكل من تحريرها البنان ! .

لقد قاتل قائد المسلمين زيد بن حارثة حتى قتل ، فأخذ جعفر منه الراية وقاتل
حتى قطعت يده اليمنى ، فأشد قائلاً :-

يا حبذا الجنة واقتربها طيبة وبارداً شرابها

ثم أمسك الراية ببساره ؛ حتى إذا قطعت أمسكها بعضديه ودفع بنفسه إلى
العدو حتى مزقته الرماح ، لحمل الراية منه عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل ،
ونظر المسلمون إلى جسد جعفر رضى الله عنه ، فإذا ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل
منه تسعون جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ليس منها واحدة في ظهره
فهو مقبل أبداً لا يولى دبره ولا يعرف القهقري . فأى بطولة هذه ؟ ! إنها البطولة التي
تلقوها عن قائدهم الأعلى عليه الصلوات . ذلك القائد الذي قال فيه على رضى الله
عنه « لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أقر بنا
إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً ! » .

وقد جعلت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة القائد فرضاً واجباً ، فسكان عليه السلام كلما أمر رجلاً على الجند أمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا . وقد حدث أن استعمل عليه السلام رجلاً من الأنصار ، يقال له عبد الله بن حذافة السهمي على سرية بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فأغضبوه في شيء ، فقال : اجمعوا لي حطباً ، فجمعوا ، فقال : أوقدوا ناراً فأوقدوا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا له وتطيعوا ؟ قالوا بلى ، قال فأدخلوها ! فنظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار « فسكن غضبه وأطقئت النار . فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له . فقال : لو دخلوها ماخرجوا منها . . إنما الطاعة في المعروف . إذ أنهم لو أطاعوا قاذمهم فيما أمر اعصوا الله والرسول ، وقد جاء القرآن الكريم ينص في صراحة ووضوح على طاعة الله ورسوله قبل طاعة ولي الأمر فقال « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقد كان المسلمون يسرعون إلى طاعة قاذمهم في المعروف كل الإسراع ولم يكونوا ينازعونهم حق القيادة والإمارة حرصاً على اجتماع الكلمة واتلاف الجهود فلقد حدث أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص على رأس ثلاثمائة من المهاجرين في غزوة ذات السلاسل . فلما اقترب عمرو من العدو علم أن له بأساً شديداً ، وجمعاً كثيراً ، فخاف على جيشه الهلاك إن هو نازل القوم ، وأرسل إلى رسول الله يستمد ، فأمدّه بمائتين عقد لواءهم لابن الجراح ، وجعل فيهم أبا بكر وعمر وفرسان المسلمين ، وأمر أبا عبيدة ألا يختلف مع عمرو . فلما بلغ المدد عمراً ، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس في الصلاة فقال عمرو : إنما قدمت

علي مدداً وأنا الأمير . فأطاعه ابن الجراح واتخذ منه قائداً وإماماً . وما ذلك إلا طاعة لأمر رسول الله بأن يتطوعا ولا يختفيا ، وتفضيلاً للآخرة على الأولى . فلم يك هؤلاً ، يكثرثون بالدنيا ومظاهرها ، أو يعبثون بالقيادة والإمارة . قال كل سواء أمام الله . ليس للقائد فضل على الجندي إلا بإخلاصه وحسن بلائه . فرب مرؤوس يخرج مغموراً وسط أقرانه ولا يحظى الرياء عليه . ورب رئيس يرى الشيطان نفسه كأحسن ما يكون القائد في جنده والإمام في رعيته ، فيطغى عليه الغرور ويمسكه العجب .

ولو قد كان أصحاب الرسول طلاب رئاسة أو عشاق قيادة لما اضطلحوا على واحد منهم بعد أن قتل زيد وجعفر وابن رواحة يوم مؤته . لقد أخذ الراية ثبت ابن ارقم فقال : - يا معشر المسلمين اضطلحوا على رجل منكم « فقالوا له انت فقال « ما أنا بفاعل » زهداً منه في الرئاسة واعراضاً عن تبعاتها الجسام ، ثم لم يلبث الجند ان اضطلحوا على خالد بن الوليد ، فواهبها دون أن يجد منافساً أو منازعاً . ولو كان قوم غيرهم لاختلفوا وتفرقوا ، واستبدت الأثرة بهم فلا يسطلحون على قائد حتى يكيد له الآخرون أو يمتنعوا عن القتال تحت رايته . ومتى دب الحقد والحسد في نفوس الجند قتل على النصر السلام .

* * *

وقد كان من أهم واجبات القائد أن ينظم جنده ويرتب جيشه اتباعاً لقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) فكان عليه السلام يرتب الصفوف ويعين الأماكن بيده ، فيقول لهذا تقدم ولذا تأخر . ففي غزوة بدر عدل جنده حتى استقامت صفوفهم ، ودفع اللواء الى مصعب ابن عمير ، والراية التي للمهاجرين إلى علي بن أبي طالب ، والأخرى التي للانصار

إلى سعد بن معاذ ، وجعل على الساقة قيس بن صعصعة . وفي غزوة أحد نظم عليه السلام جنده بعد أن جعل ظهورهم إلى الجبل ، فاعطى اللواء معصب ابن عمير ، وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى المنذر ابن عمرو . ثم طاف بالجند يرد من ليس أهلاً للقتال . فرد يومئذ عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وأسيد بن ظهير ، والبراء بن عازب ، وزيد بن ثابت ، وعرابة بن أوس ، وعمرو بن حزام .

ولم يكن عليه السلام ينظر إلى صغر السن ما دام الجسم قوياً نامياً فقد أجاز اثنين من الصبية هما سمرة بن جندب ورافع بن خديج لما رآهما مطيقين . وقد قال ابن عمر لما اذن له بالقتال « فلما رآني مطيقاً أجازني » وخير ما يؤكد ما رواه من أن القدرة لا السن هي مقياس الانضمام إلى الجندية ما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب عند ذكر سمرة بن جندب من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض غلمان الانصار في كل عام فمر به غلام فأجازه في البعث ، وعرض عليه سمرة بن جندب من بعده فرده ، فقال سمرة يا رسول الله لقد أجزت غلاماً ورددتني . ولو صار عني لصارعه . قال فصارع ، فصارعه سمرة فصارعه ، فأجازه الرسول صلى الله عليه وسلم في البعث .

وقد أخرج ابن سعد عن سعد قال رأيت أخى عمرو بن أبى وقاص قبل أن يعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر متوارياً فقلت مالك يا أخى قال اني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرنى فيردنى وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة ، فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستصغره . فبكي فأجازه فكان سعد يقول فكنت اعتقد حائل سيفي من صغري ، فقتل وهو ابن ستة عشر عاماً .

ومن هذا الذى قدمناه يتبين لنا أن رسول الله صلى عليه وسلم كان يعرض صفوف الجند قبل القتال لينظمها ، ويرد من لا يطبق القتال ، ويجيز من يطبق ولو كان صغير السن ، فر بما رد غلاماً فبكى شوقاً إلى الشهادة وحباً فى الجهاد فاجازه كما فعل بمعمر بن أبى وقاص . وربما رد غلاماً وأراد أن ينتفع به فجعله فى حرس المدينة . وان هذا التنظيم والترتيب والعرض كان من أهم واجبات القيادة كما قدمنا .

الأمماد الملائكى

لست أشك فى أن نصر الله سبحانه للرسول وصحبه فى حروبهم وغزواتهم حقيقة ثابتة لا ينكرها باحث مدقق ولا مؤمن صادق . فله جنود السموات والأرض . ومن جنوده الرعد والبرق والمطر . ان سـلطها على قوم فلا حياة لهم أبداً . فقد أشار الحباب على رسول الله يوم بدر ان ينزل مكاناً يمكن المسلمين من الماء ويمنعه عن قريش . وكانت قريش هى الأخرى تريد ان تسرع إلى الماء فتمنعه عن المسلمين وتظفر هى به . ولكن الله تعالى حى لا ينـام ، يقظ لا يغفل . . لقد وعد عباده النصر . واثن ظفرت قريش بالماء ومنعته عن المسلمين لما تحقق ذلك النصر ، وحاشا لله إذا أراد شيئاً ان لا يتم . إنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له : كن فيكون . والله جنود السموات والأرض . لقد أرسل الله على الأرض مطراً كان شراً ووبالاً على قريش ، وبردأ وسلاماً على المسلمين : كان المطر غزيراً على معسكر قريش ، وكان معها كثير من الخيل ، فلم تقو لغزارة المطر وبلوله الأرض على الاسراع إلى الماء . وكان المطر قليلاً هادئاً على معسكر المسلمين فلبد لهم الأرض وجعلها ذلولاً لابلهم ، فثبتت أقدامها على الرمال . فسبق الرسول وصحبه إلى الماء وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداه من المياه .

ومن جنوده الملائكة عليهم السلام . وقد تجلى نصرهم للمسلمين فى بدر حتى سمعهم وأحسوا بهم ، فلم يبق الا أن يكشف عنهم الحجاب فينظروا إليهم . ولا عجب فهذا ابن عباس رضى الله عنه يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه فيسمع ضربة سوط وصوت فارس يقول : اقدم حيزوم ، ثم يرى المشرك أمامه ملقاً على الأرض وقد خطم انفه وشق وجهه من أثر السوط ، فيعلم أن

هناك غيره قد فعل ذلك ، ويذهب إلى رسول الله عاجباً يحدثه بأمر حيزوم !
فيقول له الرسول صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ! !

وقد كان أبو داود المازني يتبع رجلاً من المشركين ليضربه ، وبينما هو
كذلك إذ برأس المشرك تقع على الأرض قبل ان يصل إليه سيفه فيعلم أن
هناك من قتله غيره .

وقد استطاع رجل من الانصار ان يأتي بالعباس بن عبد المطلب أسيراً إلى
رسول الله . ولكن العباس صاح قائلاً « ان هذا والله ما أسرني . لقد أسرني
رجل أجلب من أحسن الناس وجهاً ، على فرس ابلق . وما أراه في القوم ! !
فقال الانصارى « أنا أسرته يا رسول الله » فقال الرسول « اسكت فقد ايدك
الله بملك كريم ! » .

ولم يكتف الملائكة بالحرب والقتال ، بل كانوا يطهرون الشهداء فيفسلونهم بالماء
إن كانوا جنباً . من ذلك ما حدث لحنظلة ابن أبي عامر ، فقد سمع صيحة الجهاد
يوم أحد وكان على امرأته فقام من فوره يجاهد في سبيل الله ، فقاتل حتي قتل
فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن الملائكة تغسله ثم قال سلوا أهله
ما شأنه ، فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر .

ولا نستطيع أن نقف عند الإستشهاد بمحمد الله ، ففي هذه الحادثة بطولة
ورجولة لا يستطيع القلم أن يقف أمامها على القرطاس ، بل أنه ليجرى بكلمات
التقدير والإعجاب . فهذا الرجل - رضى الله عنه - يجامع امرأته ، فيسمع
الصيحة ويسرع إلى الله ورسوله ولما يقض شهوته ، لأن لذة الجهاد من أجل الله
خير من الدنيا وما فيها . وكيف لا ، وهي لذة الروح ، ترتفع بصاحبها من مادية
الأرض إلى روحانية السماء . . . ان هذا الرجل قد آمن الله ، ولا يؤمن إنسان

حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه . فكيف يجمع النساء وغيره يسرع إلى الهيجاء ؟ بل وكيف يفضل امرأته على الله ورسوله ؟ ! لقد فاض هذا القلب المؤمن بحب الله . فانتهمى عما نهى عنه الله إذ يقول (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

فلا عجب أن أكرمه الله بهذا الشرف العظيم . فانزل ملائكة تغسله وتطهره فله هذا من وسام ! والله هذا من شرف !

ولقد روى نافع بن جبير عن رجل من المهاجرين أنه قال « شهدت أحدا فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل ذلك يصرف عنه » فمن كان يصرفها عنه إلا الله ، ومن كان يحميه إلا جند الله ، فتدفع عنه الأذى بإذن الله . هذه الأحجار تنفتحت قبل أن تصل إليه ، أو تطير بها الريح بعيداً عنه ، أو تهبط هي من خشية الله أن تصيب رسوله واحب الخلق إليه . وكل لله جند وكل لله طوع .

ولقد أكمل هذا المهاجر حديثه فقال « ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد لا نجوت إن نجا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ، فعاتبه في ذلك صفوان ، فقال والله ما رأيته أحلف بالله أنه منا ممنوع . وهنا يسخر الله جنده كما سخرها يوم الهجرة ، فأعمى بصرا بن شهاب كما أعمى رجال القبائل عندما أحاطوا ببيت رسول الله . ورسول الله ليس ببعيد ، وإنما هو إلى جانبه ، إلا أنه ممنوع كما شهد الرجل . ومن يمنعه إلا الله ؟ ... وكفى بالله مانعاً . وكفى بالله نصيراً .

وإن يوم الخندق ليمتلىء بنصر الله وتأييده . فقد سخر الله جنده لنصرة دينه .
البرق يلعب فيخطف الأبصار ، ، والرعد يقصف فيثقل الآذان ، والمطريهطل فيطفيء
النيران ، والريح تعصف فتسكف القدور وتقوض الخيام ، والرعب يقذف فيسلب
الأمن من النفوس ، والأرض تميد بهم فلا يقر لهم قرار ، وترى القوم سكارى ،
وما هم بسكارى ، ترتفع الصيحات من أفواههم مضطربة خائفة ، تنادى بالنجاة
من هذا البلاء فيسرع القوم ويولون الدبر ، يظنون أن قد نجوا ، والساعة موعدهم
والساعة أدهى وأمر . وإذ ذاك تقلع السماء ، وتبلغ الأرض الماء ، ويخمد البرق ،
ويسكت الرعد ، وتهب الرياح . وينظر المسلمون أمامهم ، فلا يجدون عدوهم ،
فتمتلىء قلوبهم بحمد الله ، وتردد ألسنتهم قوله الكريم « والله جنود السموات
والأرض » ويعبر شاعرهم عما تحتلج به نفوسهم فيقول :

حتى إذا بلغوا المدينة وارتجوا قتلى الرسول ومنعهم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدهم ردوا بغيزهم على الأعقاب
بهبوب معصية تفرق جمعهم وجنود ربك سيد الأرباب
فكفى الآلهة المؤمنين قتالهم وأثابهم في الأجر خير ثواب
وعندما دخل الرسول المدينة : وضع السلاح ، لكن جبريل لم يمهله أن
جاءه فقال « أوضعتم السلاح . فما وضعت الملائكة السلاح بعد . وما رجعت
الآن من طلب القوم . إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة فإني عامد
إليهم فترزّل بهم » فقال عليه السلام لأصحابه « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين
العصر إلا في بنى قريظة . فأسرع المسلمون إليها . وهناك أيدهم ربهم بنصره
وأمدهم بحنده » وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف
في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم

وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً»

والمؤرخون أمام هذا النصر الإلهي والمدد الملائكي فريقان . فريق يرى أن قتال الملائكة كان حسيماً ، وفريق آخر يرى أن الإمداد الملائكي كان إمداداً معنوياً .

والفريق الأول يستند إلى ظاهر الآيات التي أشارت إلى هذا الإمداد ، وإلى الأخبار التي سجلها التاريخ عن غزوات المسلمين ، والتي قدمنا الحديث عنها ، وهم من أجل ذلك يعتقدون أن المسلمين لم يكونوا ٣١٤ محارباً في غزوة بدر مثلاً ، وإنما كانوا ٣٣١٤ أو ١٣١٤ : ٣١٤ من الإنس والباقي من الملائكة وفي الحق أن الباحث لا يكاد يرى مثل رأى هؤلاء المؤرخين ، ويذهب إلى ما ذهبوا إليه من أن الإمداد الملائكي كان حسيماً حتى يسأله عقله ، وما حاجة المسلمين إلى ألف أو ثلاثة آلاف من الملائكة مادام الامداد حسيماً ؟ ألا يكفي ملك واحد ليهزم أقوى جيش ؟ وكيف لا وقوته من قوة الله لا تقاومها أية قوة . وإذا سلمنا أن الامداد الملائكي كان حسيماً ، ألا تتضائل معه جهود المسلمين في غزوة بدر أمام جهود الملائكة ^(١) .

ليس أمامنا إزاء التاريخ الذي يثبت بحقائقه أن القتال كان حسيماً والعقل الذي يعجب بما يبيده من أسئلة يملها عليه المنطق ؛ كيف كان القتال حسيماً ، ليس أمامنا إزاء التاريخ وحقائقه ، والعقل ومنطقه إلا أن نذهب إلى رأى وسط بين التاريخ والعقل . إن من البله أن نضرب بالعقل ومنطقه عرض الحائط ، كما أن

(١) يرى الأستاذ عبد الوهاب خلاف بك أن الامداد الملائكي كان إمداداً معنوياً ، ويرى غيره أنه كان حسيماً . فأما رأينا فنفضله في الصفحتين التاليتين .

من التجنى أن نقذف بالتاريخ وحقائقه وجه الفضاء ، فمن البله أو التجنى أن نميل إلى العقل وندع حقائق التاريخ أو نميل إلى حقائق التاريخ وندع منطق العقل عند ما يبدو لنا شيء من التعارض بينهما ، إذ من اليسير على الباحث المفكر أن يوفق بين العقل والتاريخ ، فلا أظن أن الحقيقة تعارض مع المنطق أبداً ، بل ولا أعقل ذلك .

فليس يعنى تحديد القرآن اعداد الملائكة الذين أمد الله بهم المسلمين بألف أو بثلاثة آلاف ، أنهم اشتركوا جميعاً في القتال أو أنهم اشتركوا بعضهم أو كلهم اشتراكاً كاملاً . فاشتركهم جميعاً ، أو اشتراك بعضهم اشتراكاً كاملاً معناه هلاك جيش المشركين في أقل من لمح البصر . وهذا ما لم تؤيده حقائق التاريخ فإنما كانت المعركة ككل المعارك يموت من أحد الفريقين كما يموت من الآخر ثم ينتهى الأمر بانتصار فريق على فريق بعد جهد وعناء من الفريقين . ولو كان القصد إهلاك قريش ، لما أرسل الله ألف ملك . بل ولما أرسل ملكاً واحداً وإنما تهلكتهم مجرد الرغبة الإلهية . فما تلحق الكاف النون من قوله تعالى كن حتى يكونوا قد بادوا دون ملك أو ألف ملك .

وأكبر الظن أن القصد من ذكر الملائكة بهذه الكثرة عند التحدث عن امداد الله بهم عبادة ، إنما كان لاطهار جيروت الله وقوته وأن له جنود السموات والأرض ، وبث الطمأنينة في قلوب المسلمين كي لا يخافوا من قلة ، فهم بالله وجنده كثير . وأكبر الظن كذلك أن هذه الألف والآلاف من الملائكة كانوا حاضري المعركة على أهبة القتال ، إلا أنهم اشتركوا اشتراكاً طفيفاً بالنسبة إليهم كملائكة عظيماً بالنسبة للمشركين كبشر .

كما أن اشتراكهم كان في مواضع خاصة كحماية من يريد الله حمايتهم من المسلمين ، كرسوله وبعض الصحابة الذين يرجو الرسول أنه يشدوا من أزره . وفي أوقات خاصة لعلها عند ما يخشى على المسلمين الهزيمة ، كأن يردوا المشركين ثم يمكنوا للمسلمين منهم ويدعوا المسلمين بعد ذلك يحاربون ويبذلون الجهد وهكذا حتى يكتب الله لهم النصر .

مصادر الكتاب

القرآن الكريم

صحيح البخارى

سيرة ابن هشام

الطبقات الكبرى لابن سعد

الترتيب الادارية

الأحكام السلطانية للماوردي

الخراج لأبي يوسف

تفسير المنار

زاد المعاد لابن القيم

القرآن والفتاى للشيخ شلقوت

النظم الإسلامية للدكتورين حسن ابراهيم وعلى ابراهيم

عصبة الأمم للبدرمانى

عصبة الأمم اسكترتارية العصابة بجنيف

الحرب العظمى « لعمر أبو النصر »

الحرب العظمى لـ كاتب فرنسى تعريب ادوارد مرقص

الحرب لأحمد حسين

بحوث متفرقة فى بعض المجلات الثقافية .

فهرس الكتاب

٦٩	التدريب العسكري	٥	تقديم
٧٠	التجنيد الاجبارى	٧	كيف شرع القتال
٧٨	النساء والحرب	٩	حكومة الرسول حكومة سلام
٨٥	الjasوسية	٢٠	غاية الحرب فى الإسلام
٩١	الحرب خدعة	٢٢	علاقة المسلمين بالدول المجاورة
٩٦	الحرب الاقتصادية	٢٦	الحروب الإسلامية والمبادئ
١٠٠	حرب الاعصاب		الانسانية
١٠٣	الطابور الخامس	٣٥	المهود والمواثيق
١٠٨	رجع إلى قواعدہ سالما	٤٢	الفضيلة فى حروب الإسلام
١١١	مجلس الحرب	٤٦	القتال فى الشهر الحرام
١١٣	مجلس الامن الإسلامى	٤٨	الاسرى
١١٨	قيادة الجيش	٥١	هل يستعان بغير المسلم ؟
١١٤	الامداد الملائكى	٥٥	القوة المعنوية
١٣١	مصادر الكتاب	٦٠	القوة المادية

